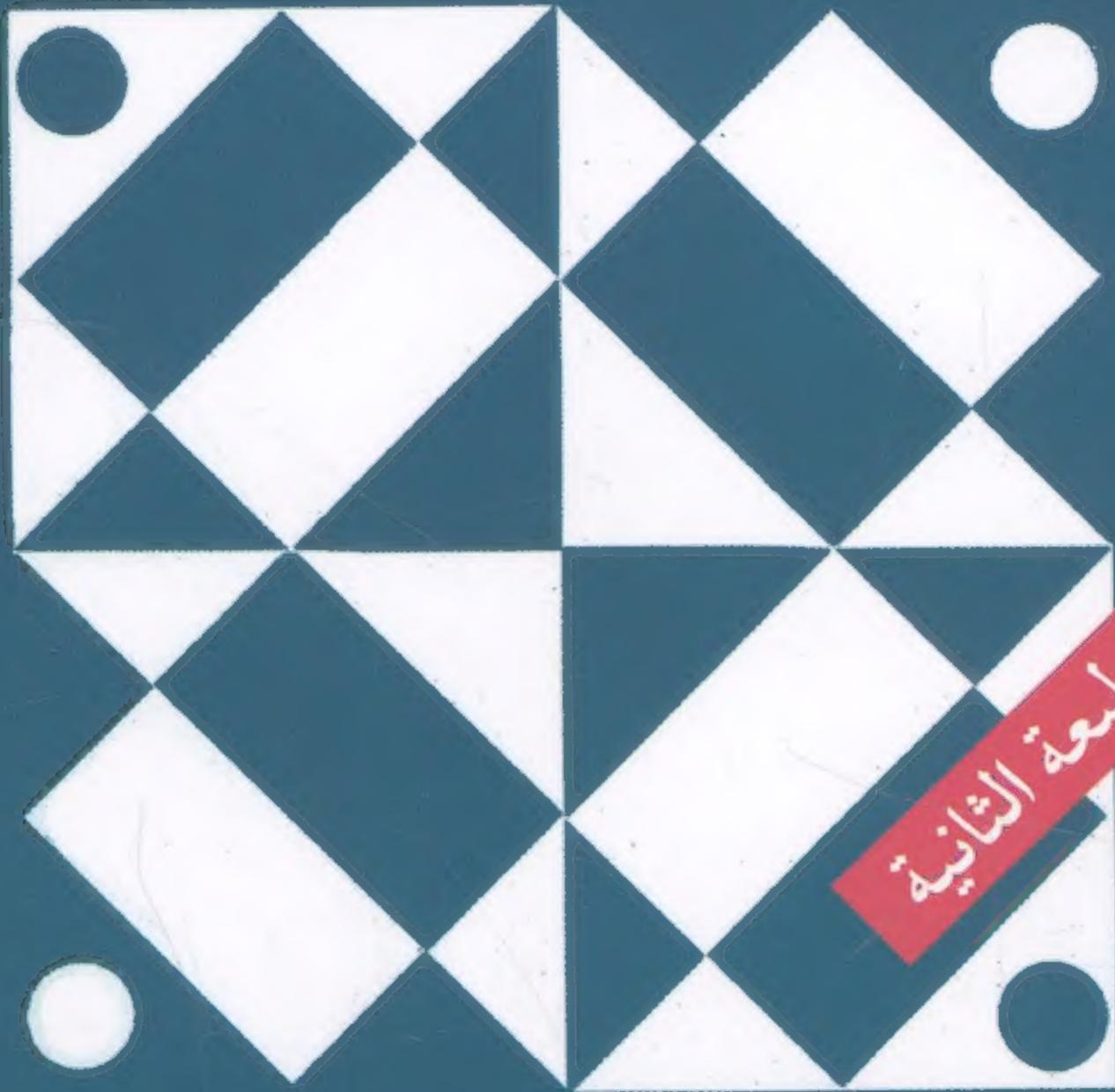


التنمية والقيم

مناقشات حرة

لنخبة من خبراء البنك الدولي



الطبعة الثانية

ترجمة
محسن يوسف

تقديم الطبعة العربية
إسماعيل سراج الدين

تأليف: ديفيد بيكمان
رامجوبال أجاراوالا
سفن بير ميستر
إسماعيل سراج الدين

تقديم: باربر كونابل

2/753

التنمية والقيم

(مناقشات حرة لنخبة من خبراء البنك الدولي)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٥٣ / ٢

- التنمية والقيم

(مناقشات حرة لنخبة من خبراء البنك الدولي)

- نخبة

- باربر كونابل

- محسن يوسف

- إسماعيل سراج الدين

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

Friday Morning Reflections

At the World Bank

Essays on values and development

by: David Beckmann, Ramgopal Agarwala,

Sven Burmester, and Ismail Serageldin

Foreword by Barber B. Conable

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

سارح الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

التنمية والقيم

مناقشات حرة لنخبة من خبراء البنك الدولي

تأليف: ديفيد بيكرمان

رامجوبال أجاروالا

سفن بيرميستر

إسماعيل سراج الدين

تقديم: باربر كونابل

ترجمة: محسن يوسف

مقدمة الطبعة العربية

إسماعيل سراج الدين



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٤٥٩ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 373 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات

- 7..... مقدمة الطبعة العربية «إسماعيل سراج الدين»
- 9..... تقديم «باربر كونابل»
- 13..... مقدمة «ديفيد بيكمان»
- 23..... بيان تناغمي: تطبيق الفلسفة الهندوسية «رامجوبال أجاراوالا»
- 47..... آفاق مظلمة وأمال مضيئة «ديفيد بيكمان»
- 79..... هل يمكن غروب الآلهة؟ ما بعد الإيمان بالعلم «سفن بيرميستر»
- 111..... رؤية مسلم لمجتمع التوازن والعدل «إسماعيل سراج الدين»
- 143..... خاتمة «ديفيد بيكمان»

مقدمة الطبعة العربية

كان الانشغال بالقضايا الإنسانية الكبرى من أكبر الموضوعات التي اهتم بها المشتركون في لقاءات صباح الجمعة، وهم جميعا من العاملين في البنك الدولي باعتباره أحد المؤسسات الدولية التي تهتم بقضايا التنمية في العالم. وإلى جانب هذه الاهتمامات الشخصية كان عملنا في البنك الدولي يتضمن قراءة ومعرفة وتحليل أحوال وشئون البيئة والأحوال الاقتصادية والاجتماعية ومشاكل السكان ونسب التنمية، وكذلك أحوال التعليم والرعاية الصحية وغيرها من القضايا المرتبطة بأحوال البشر في جميع أنحاء العالم.

ولقد أدى الاطلاع على هذا الكم من المعرفة إلى التساؤل فيما بيننا عن دور القيم في تحسين أحوال البشر، بحيث تصبح الأرض مكانا أفضل لمن يعيشون الآن، وكذلك لأجيال المستقبل. ولذلك كانت لقاءات الجمعة فرصة عظيمة لطرح الأفكار والتداول مع كل المشتركين في هذه اللقاءات التي كانت تنتهي بإثراء رؤيتنا جميعا للقضايا الإنسانية الكبرى، وذلك من خلال المناقشات الجادة حول دور الدين والقيم في عمل الإنسان ومن أجل التنمية المستدامة، وكانت هذه المناقشات تدور بين أعضاء لقاءات يوم الجمعة الذين ينتمون إلى خلفيات دينية وثقافية وتراثية متنوعة أثرت في فحص قضايا التنمية وعلاقتها بالقيم من خلال زوايا مختلفة ومتنوعة.

ولقد أسفرت هذه اللقاءات عن أربع مقالات نشرت باللغة الإنجليزية في عام ١٩٩١ من أجاراوالا وبيكمان وبيرمستر وسراج الدين، وكل منهم ينتمى إلى خلفية دينية وثقافية مختلفة عن الآخر. وتم نشر هذه المقالات باعتبارها آراء تمخضت عن خلفيات تضمنت اعتبارات أخلاقية واقتصادية وسياسية واجتماعية تتفق مع الخلفيات الخاصة بأصحاب هذه الآراء. وذلك بالإضافة إلى ما أسفرت عنه المناقشات التي اشترك فيها كل أعضاء المجموعة حول ما يمكن أن تلعبه القيم من دور مهم في تشكيل حياة العالم والبشر.

وتقدم النسخة العربية من هذا الكتاب فرصة طيبة لمعايشة المناقشات الفكرية التي تمت داخل أكبر وأهم مؤسسة للتنمية في العالم، على أمل أن تعبر الأفكار المطروحة في هذا الكتاب عن أهمية القيم في التنمية، وتعيد الثقة في إمكانية تحسين مستقبل الإنسانية من خلال ما طرح في الكتاب من أفكار يجمعها في الأصل نسيج أخلاقي واحد، رغم اختلاف الانتماء إلى التقاليد الدينية والثقافية لأصحاب الآراء المطروحة التي ركزت على معالجة قضايا التنمية وسبل الحفاظ على الحياة بطريقة أفضل على كوكب الأرض، وعلى أمل أن تبشر هذه المحاورات بالرغبة في العمل على تحقيق مرحلة جديدة يحل فيها الحوار مع الآخر محل الصراع والنزاع والصدام.

مدير مكتبة الإسكندرية

إسماعيل سراج الدين

تقديم

باربر كونابل
رئيس البنك الدولي*

فى صباح كل يوم جمعة وفى البنك الدولى يجتمع نخبة من الأفراد لمناقشة ما يشغلهم وما لهم من اهتمامات تتعلق بالقيم الأخلاقية المتصلة بعملهم وذلك من خلال وجهات نظرهم الخاصة والفريدة. وتتمثل معظم الأديان والقارات فى العالم داخل هذه النخبة. ولقد كانت هذه المناقشات خبرة ممتعة لهذه النخبة والتي نتج عنها صياغة هذا الكتاب.

ولا يعتبر البنك الدولى بنكا بالمعنى المعروف، ولكنه مؤسسة مصرفية للتنمية لا تهدف إلى تحقيق الربح المالى ولكن تهدف إلى إزالة وتخفيض أسباب المعاناة من الفقر. ويعد البنك الدولى من المؤسسات البيروقراطية الكبيرة حيث يضم أناسا من جميع أنحاء العالم لهم خبراتهم وكفاءاتهم ومهاراتهم. هذا وبعد مضى أكثر من خمسة وأربعين عاما** على إنشاء وتأسيس البنك الدولى أصبح دور البنك فى التنمية أمرا

* عمل السيد باربر كونابل رئيسا للبنك الدولى خلال الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٩١ ويتولى حاليا السيد ونستون رئاسة البنك الدولى. (المترجم)

** مضى على إنشاء البنك الدولى وقت ترجمة هذا العمل أكثر من خمسة وخمسين عاما. (المترجم)

مركزيا ومعتزفاً به كما تعاضمت مصادره وأصبح يتمتع بمصداقية لا جدال حولها. ولقد أصبحت المبادرات الجديدة والمتعلقة بالتنمية سواء كانت نشأتها من داخل أو خارج البنك نقطة جذب في برامج البنك، وذلك لأنه يعتبر المؤسسة الوحيدة المؤهلة للتعامل مع هذه المبادرات الجديدة. هذا ويتوقع من البنك الدولي أن يستجيب ويتعامل بطريقة سليمة مع مشكلات مثل مشكلات الديون والانشغال بهوم البيئة وإعادة البناء في المجتمعات الاشتراكية والهزات غير المتوقعة في سوق النفط والركود العالمي وغيرها من المشكلات المماثلة التي قد تحدث في المستقبل.

والسؤال المطروح هنا هو هل حقق البنك الدولي نجاحا في رسالته؟ فمزال الفقر مستمرا بالإضافة إلى أخطاء الحكام، وكذلك الزيادة السكانية مازالت مستمرة بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في أعداد الأميين والعوائق التي يواجهها التبادل التجاري وعدم توافر العدالة في توزيع المصادر والثروات. وإن النجاح أو الفشل في مجال التنمية له مكوناته الكثيرة، ولكن بدون الجهود التعاونية الكبيرة التي تبذل من جانب البنك الدولي فإن منحني الازدياد في مثل هذه المشكلات يتوقع أن يكون أكثر حدة.

ولا تقاس التنمية الحقيقية بالإحصاءات الاقتصادية العامة ولكن عن طريق التحسن الحقيقي في مستوى معيشة الأفراد. وبنفس المفهوم فإنه يمكن أن يقال إن التنمية لا يمكن أن تعتبر قوة تعمل في فراغ وليس لها

علاقة بالأفراد. فهي جهد فردي يدعمه تعاون الآخرين ويعمل الفهم المتبادل والتشجيع على زيادة التفاهم بين الكفاءات وتحقيق التنسيق بين الدوافع العالية لدى الأفراد. ومن دواعي السرور أن التنمية لا تعد من بين الأشياء التي يسهل عدم الاتفاق عليها بين الناس وخاصة في أوقاتنا هذه والتي تتميز بقلة حدة التوتر بين الشرق والغرب.

ويتركز هذا الكتاب حول اكتشاف ودراسة وفحص القيم العامة والمشاركة بين الناس. وبالرغم من أن القيم الخاصة بأفراد الأسرة الواحدة تعتبر أمرا مسلما به فإن الشعوب - وخاصة تلك التي تنتمي إلى بعض الجوانب المختلفة والمتضادة في هذا العالم - تحتاج إلى إعادة التأكيد من المجتمع. وإن إعطاء الالتزام مدى الحياة سواء لإجراءات أو مؤسسة بعينها يحتاج إلى دراسة وفحص متعمق لأفكار ومشاعر الإنسان. فإنه لا يكفي أن تتوفر للإنسان وظيفة مضمونة، ولكن يجب أن يدعم ذلك الرضا عن بقية من يعمل معهم، وكذلك الرضا عن الدوافع الخاصة به وكذلك دوافعه تجاه عمله. فلا ترجع القوة إلى التعددية وحدها، ولكن لابد من توافر أساس من القيم والمبادئ المشتركة لتحقيقها.

ولقد قام مؤلفو هذا الكتاب بفحص ودراسة مجموعة القيم الخاصة بهم بصورة واعية وبهدف مشترك بينهم. ولذلك فإن قراء هذا الكتاب سيشعرون بالثقة مرة أخرى في مستقبل الإنسانية من خلال ما كتب في

هذا الكتاب، حيث إن المشتركين في تأليفه يجمعهم نسيج أخلاقي مشترك بصرف النظر عن تلك الكلمات التي تستخدم للإشارة إلى أصولهم أو نشأتهم الدينية، فهذا هو معنى "الإنسانية" بوجه عام.

مقدمة

ديفيد بيكمان

يجتمع في الساعة الثامنة من كل يوم جمعة حوالي خمسة وعشرين شخصًا، وذلك لتبادل المناقشات عن دور القيم في عمل البنك الدولي وعن التنمية في العالم بصفة عامة.

وعضوية هذه المجموعة مفتوحة تقريبا لجميع العاملين في البنك الدولي سواء أكانوا ممن يعملون في مجال السكرتارية أم على مستوى نائب رئيس البنك الدولي. وتضم هذه المجموعة رجالاً ونساء من جميع أنحاء العالم ويمثلون ديانات وعقائد وثقافات مختلفة، كما أن تكوين هذه الجماعة يختلف من أسبوع إلى آخر، ولكنها في الأغلب تضم كاثوليكيا من الكامبيرون، ويهوديا من الولايات المتحدة، وفلسطينيا، ومبشرا بروتستانتيا من أستراليا، والعديد من الهندوس، بالإضافة إلى آخرين لا يعتنقون أيًا من الديانات. ولما كانت مهام بعض العاملين في البنك تتطلب السفر إلى مختلف أنحاء العالم، فقد كنا نجد في أي يوم من أيام الجمعة والتي تجتمع فيها هذه النخبة أشخاصا قد يكونون عائدین لتوهم من الصومال أو إندونيسيا أو البرازيل.

ويعتبر البنك الدولي من أكبر المؤسسات الدولية في العالم التي تعمل لتدعيم التنمية الدولية، حيث يقوم بالاستثمار في المشروعات التي تشجع

على تبنى السياسات الداعية إلى التنمية الاقتصادية وتقليص الفقر في الدول النامية، وتتفق جماعة يوم الجمعة على أن العمل في البنك الدولي يدفعها بصفة يومية إلى الربط بين المبادئ والأخلاق والدين وبين الاستثمارات الكبيرة والسياسات الاقتصادية التي يتعامل معها البنك.

ويتناوب أفراد هذه النخبة قيادة المناقشات، وأحد أشكال المناقشات المعتادة داخل هذه المجموعة يتمثل في أن يقوم أحد أفرادها بالتحدث باختصار عن خبراته في الحياة والقيم التي تأثر بها أو تشكل عليها، ثم ينتقل إلى الحديث عن رؤيته للتأثيرات التي أحدثتها هذه القيم في مجال العمل في البنك الدولي وفي مجال التنمية بصفة عامة، وينشأ عن ذلك العديد من المناقشات التي يتبادلها أفراد هذه المجموعة والتي غالباً ما تمتد إلى الأسبوع التالي.

وتحكي سيدة من كوريا عن طفولتها التي عاشتها في فقر حيث كانت تساعد والدتها في بيع البطاطا المشوية على جانب الطريق، وهي ما زالت تتذكر العديد من قصص الحكمة الجميلة التي كانت تقصها عليها والدتها طوال هذه السنوات.

ويشير رجل آخر من ليسوتو Lesotho إلى تجربة حياته في مجتمع مغلق، والتي عاشها في قرية، ويبرز ما لهذه الخبرة من علاقة بعمله الحالي كأحد المسئولين في مؤسسة بيروقراطية دولية كبيرة.

وتستعرض سيده أخرى من الولايات المتحدة مع الآخرين خبرتها الفريدة وغير العادية في ممارسة الصلوات والإحساس القوى بتبني رسالة، هذا الإحساس الذي تصطحبه معها إلى عملها الآن.

كذلك يناقش مع المجموعة زائر رسمي للبنك الدولي من جمهورية الصين الشعبية اتجاهات الصين نحو التنمية والتحرر الاقتصادي والحرب النووية، كما يستعرض مع المجموعة الصراع الذي يُحيره بين قيمه الحديثة وتصميم والده على التقاليد القديمة فيما يتعلق بسلوك الأسرة.

في أحيان أخرى يقوم أحد المسؤولين الكبار في البنك بالتحدث إلى المجموعة من وجهة نظر أخلاقية صريحة. ولقد قام آخر ثلاثة رؤساء للبنك الدولي وهم روبرت ماكنمارا وكلاوسون وباربر كونابل بالاجتماع مع هذه المجموعة، كما تضمنت قائمة المتحدثين إلى المجموعة من خارج البنك كلا من دوم هلدن كامار، وهو أكبر المناصرين المتمرسين لحركة التحرر من أصل العقائد والأديان liberation theology في أمريكا اللاتينية، وأ.ت. أريراتن مؤسس الحركة البوذية للتنمية الاجتماعية التي تضم الآن ثمانية آلاف قرية في سرى لانكا، وجوهانز وتفين المدير التنفيذي السابق لصندوق النقد الدولي كما أنه في الوقت ذاته معلم للصوفية، وم. سكوت بيك الكاتب المتخصص في علم النفس والروحانيات، وفريتزجوف كابرأ فيلسوف الفيزياء.

ولقد ناقشت هذه المجموعة مرارًا كيف أن البنك الدولي يمكن أن يكون أكثر فاعلية في مجال تقليص الفقر وحماية الطبيعة، كما تأملت في الأحوال العالمية مثل حركات التحرر في البلدان الشيوعية، كذلك قرأ أفراد المجموعة كتبًا مثل كتاب أ.ف. شوماشير الذي يحمل عنوان Guide for the Perplexed وكذلك كتاب روبرت م. برزج بعنوان Zen and the art of Motorcycle Maintenance و كتاب جوزيف كامبل بعنوان Myths to Live By، وقاموا بمناقشة هذه الكتب.

كما استمعنا بكل تقدير وفي بعض الأحيان مع الدهشة الشديدة للعديد من السير الذاتية والمعتقدات والاهتمامات المهنية، وتعلمنا من بعضنا البعض وفتحنا عقولنا لأفكار بعضنا البعض. وأصبحت المقولات العامة التي نتبناها بخصوص الثقافات والأديان الأخرى أكثر اعتدالًا، واكتسبت معتقداتنا قدرًا أكبر من الوضوح عندما حاولنا أن نشرحها للآخرين الذين لا يؤمنون بها، وعدلنا رؤيتنا بخصوص القضايا السياسية والاقتصادية في محاولتنا للربط بينها وبين معتقداتنا الأساسية.

ولقد بدأت اجتماعات يوم الجمعة عندما اتفقت مجموعة منا على عقد لقاء نوري لمدة ستة أسابيع نتبادل خلاله الحديث بخصوص معتقداتنا المتعلقة بالعلاقة بين القيم والتنمية، ولكن هذه المناقشات استمرت لفترة تزيد عن العقد الكامل، وانضم إلينا فيها آخرون، بعضهم لمدة أسابيع قليلة والبعض الآخر لسنوات.

ولقد ساهمت أربعة أنواع من التقاليد في تشكيل وعى المؤلفين الأربعة لهذا الكتاب: الهندوسية والمسيحية والإسلامية والإنسانية. ولكن هذه الخلفيات الدينية المختلفة وصلت بنا إلى نتائج مشتركة مؤادها أن القيم الروحية لم يستفد بها إلا بقدر ضئيل في التنمية في العالم وأن مصير الإنسانية ربما يكون في خطر.

وإننا ننشر هذا الكتاب لسببين:

أولاً: نأمل أن تشجع هذه الشهادة المشتركة من معتقى التقاليد الأربعة الآخرين على تضمين الاعتبارات الأخلاقية في أمور الاقتصاد والسياسة.

ثانياً: إننا نؤمن أن التطبيق العملي للأخلاق في مجتمعنا المتعدد هذا يعتمد على حساسيتنا للمعتقدات المختلفة عن معتقداتنا، ونأمل أن يوضح هذا الكتاب مدى الاستفادة التي يحققها أفراد ينتمون إلى خلفيات مختلفة عندما يتناقشون في مشكلات العالم في إطار من القيم الأخلاقية والدينية.

فلقد جعلتنا هذه المناقشات أكثر وعياً بالنقاط المشتركة بين التقاليد الدينية والأخلاقية المختلفة، حيث يعنى كل منها بالمشكلات والاحتمالات التي يواجهها العالم ككل في هذا القرن*، ولقد اكتشفنا أن أوجه التشابه

* يقصد هنا القرن العشرين وهو القرن الذي نشر فيه هذا الكتاب باللغة الإنجليزية.

(المترجم)

هذه تعد نقطة بداية جيدة لمناقشة القضايا الدينية والفلسفية التي ظلت معلقة لفترة طويلة ولإعادة النظر فيها.

وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل منا. لقد لعب رامجوبال أجاراوالا دورًا كبيرًا في إعداد عدد من تقارير البنك الدولي المهمة عن أفريقيا على مدار العقد الماضي، كان آخرها يحمل عنوان Sub-Saharan Africa: From Crisis to Sustainable Growth (1989) كما كان المسئول عن إعادة الهيكلة التنظيمية للقروض لكوريا، كما عمل من قبل في بعثة البنك المقيمة في بنجلاديش. ولقد حصل على الدرجة الجامعية الأولى من الهند وحصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة مانشستر في إنجلترا وقام بتأليف كتاب يحمل عنوان An Economic Model for India (1970)، كما ساهم بعدة مقالات في المجلات والدوريات المتخصصة.

أما ديفيد بيكمان فهو أحد كبار المستشارين في البنك الدولي في مجال المنظمات غير الحكومية، كما أنه كان المسئول عن إدارة الفريق الذي كان له الفضل في توجيه البنك لتوسيع تعامله مع مجموعات Grassroots وغيرها من المنظمات غير الحكومية. كما عمل من قبل معًا لخطب مدير البنك، وقبل ذلك كان مسئولاً عن مشروعات الإسكان منخفض التكاليف وتحسين أحوال المناطق الفقيرة في غرب أفريقيا

وأمریکا اللاتینیة. وهو قس لوثرى، وقبل أن يلتحق بالبنك الدولى كان يعمل فى برنامج تنمية تدعمه الحركة اللوثرية فى بنجلاديش، ومن بين مؤلفاته:

The Overseas List: Opportunities for Living and Working in the Developing Countries (1985).

وتم انتخابه فى عام ١٩٩١ رئيساً لحركة "الخبز للعالم" Bread for the World .وهى حركة المواطنين المسيحيين لمحاربة الجوع، ولذلك فإنه سترك البنك الدولى للقيام بهذه المهمة.

أما سفن بيرميستر فيحتل وظيفة السكرتير التنفيذى للبنك والتي من بين مسؤولياتها التعامل مع مجلس المديرين التنفيذيين الذى يمثل الدول الأعضاء فى البنك، كما كان من قبل مسؤولاً عن القروض الموجهة لقطاع التعليم فى البلدان التى تقع على شاطئ المحيط الهادى فى قارة آسيا، ومن بينها جمهورية الصين الشعبية. كما عمل أيضاً رئيساً لقسم القرن الأفريقى، ومساعداً شخصياً لروبرت ماكنمارا عندما كان يشغل وظيفة رئيس البنك الدولى، ويحمل بيرميستر درجتين جامعتين، إحداهما فى الكيمياء والأخرى فى العلاقات العامة، كما كان أستاذاً مساعداً فى جامعة جورج تاون خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، وهو يتحدث عشر لغات، كما أنه مشهور فى الدانمارك ككاتب وصحفى ومعلق تلفزيونى، ويحمل أحدث كتبه الذى صدر باللغة الدانماركية عنوان .USA: Land of the Middle Class

أما إسماعيل سراج الدين* فهو يشغل وظيفة مدير القسم الفني للمكتب الإقليمي لأفريقيا، كما كان يشغل من قبل وظيفة مدير برامج البنك في تسع دول في غرب أفريقيا، وذلك بعد أن كان مسئولاً عن قسم مشروعات التنمية الحضرية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ورئيساً لقسم المعونة الفنية في مقابل التكاليف للبلدان ذات الدخل المرتفع في الشرق الأوسط، ومن أحدث كتبه

Poverty, Adjustment and Growth in Africa (World Bank 1989)

Space for freedom: The Search for Architecture excellence in Muslim Society (Butterworth 1989)

وإننا مدينون لهارييت بولدوين - وهي عضو في مجموعة لقاءات الجمعة لفترة طويلة - لما قامت به من مساعدة كبيرة في تحرير مقالاتنا وإعدادها لتصبح صالحة للقراءة، وما قامت به من جهود لجذب اهتمام دار النشر Seven Locks Press.

وأشير إلى أن المقالات التي يجمعها هذا الكتاب تعبر عن معتقداتنا الشخصية، وتناقش عدداً من القضايا التي تنتمي إلى مجالات تتعدى

* تجدر الإشارة إلى أن الدكتور إسماعيل سراج الدين يحتل الآن (وقت ترجمة هذا العمل) منصب مدير مكتبة الإسكندرية، وذلك بعد أن شغل منصب نائب رئيس البنك الدولي لفترة طويلة. (المترجم)

المجالات الرسمية للبنك، ومن الواضح أن البنك غير مسئول عن الأفكار التي تم طرحها ومناقشتها في هذه المقالات، كما أنه لا يتعامل مع هذه الأفكار بالضرورة.

وإننا نبدأ كل اجتماع في كل يوم جمعة بلحظة صمت، يصلى خلالها بعضنا ويتأمل البعض الآخر، بينما يسترخى بعضنا ويتذكر أن الحياة أكثر من مجرد «الردشة» والانغماس في الأنشطة. ويعتبر هذا الوقت الذي يسوده الهدوء جزءاً مهماً جداً من مناقشاتنا، ولذلك فإننا ندعو القارئ أن يتوقف ويشترك معنا في لحظة من الصمت للتأمل.

بيان تناغمي: تطبيق الفلسفة الهندوسية

رامجوبال أجاراوالا

تشكلت رؤيتي للعالم أساسا من خلال أربعة مؤثرات وهي: الديانة الهندوسية والزعيم المهاتما غاندي، وعلم الاقتصاد، ومنطقة شرق آسيا. لقد نشأت في مناخ هندي تقليدي وتشربت الأساس الفلسفي للهندوسية الذي فهمت منه أن عناصرها الأساسية تتمثل فيما يلي:

إن الحقيقة الروحية هي أهم الحقائق الرئيسية في الحياة، ولا يمكن للمرء أن يجربها إلا من خلال سعيه الحثيث في طلبها. وقد أدرك العرافون الذين يجربون هذه الحقيقة أن البشر تكمن بداخلهم طاقات ربانية. والاتصال بهذه الطاقات فيه أعرق وأبقى بهجة. والأكثر من هذا أن الحقيقة الروحية واحدة لا تتغير على الرغم من الاختلاف في وصفها، كما أن الأشخاص الذين يختلفون في وصفها لهم من الصفات ما يجعلهم يختلفون في طرق بحثهم عنها. وأخيرا فإن الشعور بالرضا في الحياة يتمثل في أداء المرء لواجبه وسعيه نحو إدراك الطاقات الربانية التي بداخلنا بحيث نعلى الصالح العام عن طريق قيامنا بأداء واجبنا كأشخاص على خير ما يرام.

ولقد عرفت غاندي في أثناء فترة دراستي، وهو الذي ربط بين المبادئ الروحية والنضال السياسي من أجل الحرية في الهند. فلقد بين

غاندى أنه لا حاجة لفصل الحياة الروحية عن الحياة السياسية أو الاقتصادية، وأنه من الممكن أن تشكل الحقائق الروحية أدوات لنضال ناجح فى هذه المجالات. وفى الوقت نفسه فإنه يجب تطوير هذه الأدوات بحيث تلائم الزمان والظروف لكي تتمكن من استخدامها بنجاح.

ويعتبر علم الاقتصاد المؤثر المهم الثالث فى حياتى، وخاصة فيما يتعلق برؤية آدم سميث Adam Smith لليد الخفية Invisible hand وقد بدا جلياً لى أن مجال الاقتصاد، وهو جانب من جوانب المجتمع، يقوم على التوافق بين مصالح الأفراد، بشرط أن تتاح للأسواق الحرة فرصة العمل بلا عوائق من قبل المصالح الخاصة سواء من جانب الحكومة أو المجموعات ذات المصالح الخاصة. وتعمل الأسواق الحرة كما لو كانت يدا خفية تقوم بالكتابة. وللدولة أن تتدخل، كما قال ماركس، لمعالجة مشكلات المساواة الاجتماعية أو مشكلات إدارة متطلبات الاقتصاد العام كما قال كينز Keynes، بالإضافة إلى ذلك فقد أصبحت القضايا المتعلقة باستنفاد الموارد والمساواة بين الأجيال من الأسس التى يقوم عليها منطق اليد الخفية، ولكن تبقى الرؤية الأساسية للتوافق كما قدمها آدم سميث قوية، حيث تصنع قوى السوق تناغماً فى مجال الاقتصاد موازياً لذلك الذى فطنت إليه الهندوسية فى المجال الروحي.

وإن عملى فى منطقة شرقى آسيا وخاصة فى كوريا واليابان هو

المؤثر الرابع والأخير الذي أثر في حياتي؛ إذ دهشت في أثناء عملي وترحالي في هذه البلاد من الأهمية التي يعلقونها على التوازن والتوافق، فلا شيء في الحياة كله خير أو كله شر. فحتى ما هو طيب من الممكن أن يحوله الإفراط إلى شيء مدمر. والمهم هو البحث عن التوازن الملائم للظروف، وكما يقال في لغة الاقتصاد فإن الإنتاج الحدى من المواد الجيدة يصبح مساويا للإنتاج الحدى من المواد السيئة. ولذلك فإن النهج الشرق آسيوى قد يؤدي إلى إجابات أقل تحديدا على كثير من المسائل السياسية والاجتماعية ولكنه يؤدي إلى صورة من التوافق الاجتماعي أو التناغم الاجتماعي Social Harmony على نحو نادر.

هذا وقد أعطتني الخبرات التي سبقت الإشارة إليها مجتمعة رؤية للحياة تجمع بين ما يلي:

- ١- التطبيق العملي للحقيقة الروحية بالمفهوم الهندوسي على المشكلات المعاصرة.
- ٢- الفلسفة الاقتصادية للأوروبيين.
- ٣- القيم الاجتماعية الخاصة بشرق آسيا.

الرحلة من الأمل في أواسط القرن إلى الإحباط في أواخره:
عندما كنت أدرس بجامعة كلكتا في أواسط الخمسينيات كان يسود هذه الفترة جو من التفاؤل إزاء المستقبل، وكانت الهند، مثلها مثل كثير

من المستعمرات السابقة، قد شرعت في برنامجها للتحديث Modernization وكان هناك حماس هائل للعلم والتكنولوجيا وخطط التنمية الاقتصادية وكذلك الديمقراطية. ولقد كان من المتوقع أن تحقق الدول النامية انطلاقها الاقتصادي وتضييق الفجوة التي تفصلها عن العالم المتقدم خلال عقود قليلة. كذلك كانت الدول المتقدمة تعيش ازدهارا اقتصاديا غنته الحرب الباردة جزئيا وساعده انفجار التطورات التكنولوجية إلى جانب الطاقة الوفيرة والرخيصة، وبدا أنه بإمكان الدول المتقدمة أن تعيش تقدما ثابتا ومضطربا يوفر الرفاهية الاجتماعية للمحتاجين بالداخل، كما تقدم المساعدة للبلدان الفقيرة في الخارج. وبذلك تشكل في الأفق الأمل في تقدم غير محدود في العلم والتكنولوجيا ورفاهية الإنسان.

غير أن الحال تغير تغيرا جذريا عبر جيل واحد، حيث إننا نرى التكنولوجيا كما لو كانت عفريتًا من الجن، خرج من القمقم وأصبح لا يخضع لسيطرة الإنسان؛ ففي البلاد المتقدمة أصابت المشكلات الاقتصادية العتيدة رجال الاقتصاد بالحيرة والقلق، كما طرح المفكرون الافتراض القائل بإمكانية الوصول إلى حدود للنمو، بينما بدأ السياسيون في تفكيك أنظمة الرفاهية الاجتماعية التي كان بناؤها وتشكيلها قد استمر لمدة عشرات السنين، وبذلك تلاشى الأمل في معظم الدول النامية في اللحاق بالدول المتقدمة في المستقبل القريب، وبدا أنه من المحتمل أن تستمر

الحرب ضد الفقر لعدة أجيال، إن لم يكن لعدة قرون، وأصبح معلوما أنه مع تزايد الآمال وانحسار الرجاء في تحقيقها ستزداد ممارسة الفساد والقمع بين الأقوياء، ومن جهة أخرى سيزداد الإحساس باليأس والتهور والإرهاب بين المحرومين.

وإن هذا التغيير السريع والهائل في الظروف يعتبر من مهازل القدر، وسيكون أمرا مأساويا لو انتهى هذا القرن على مثل تلك النغمة المخيفة بعد هذا التقدم الهائل في العلم والتكنولوجيا والتطور في مجال التحرر السياسى. والواقع أن الطاقة الإنتاجية للعالم تفوق كثيرا ما كانت عليه من قبل، فقد انخفض عدد الذين يموتون جوعا أو عجزا عن أى قرن سابق*، ويتوقع للطفل الذى يولد اليوم أن يعيش عمرا أطول وأن تتوافر له صحة أفضل عن ذى قبل. كما حولت وسائل الاتصال المتطورة العالم إلى قرية عالمية بالفعل. وإذا عقدنا مقارنة تاريخية فإننا نجد أن هناك زيادة هائلة في الاهتمام بثقافة الآخر والرغبة في التعرف عليها، بل والقدرة على تقبلها والتوافق معها Tolerance ، كذلك فإن معظم الأقليات العرقية والدينية أصبح يتمتع بحماية أفضل. وفي معظم الدول أخذت أحوال المرأة - وهى نصف المجتمع - تتحسن ببطء. وعلى الرغم

* تجدر الإشارة هنا إلى ما يحدث (وقت ترجمة هذا العمل) فى أفريقيا من مجاعات.
(المترجم)

من الاستغلال السريع للموارد الطبيعية فإن إجمالي ثروات العالم ربما يكون أعلى من أى وقت مضى، وهى التى تشكل إجمالي أدوات الإنتاج بما فى ذلك الموارد المعروفة ورأس المال البشرى والمادى. وبالرغم من وجود الخطر الدائم من نشوب حرب نووية فقد شهدت الأعوام الثلاثين الماضية عددا أقل من ضحايا الحروب مقارنة بالسنوات الثلاثين التى سبقتها* والسؤال إذن لماذا كل هذا التشاؤم ولماذا كل هذا الإحباط؟

ترجع مشكلتنا المعاصرة إلى أزمة فى القيم أكثر من رجوعها إلى أزمة فى الطاقة أو ما شابه ذلك، فظلام اليوم يشبه ظلام ما قبل طلوع الفجر. فالإنسانية تتأهب الآن لكى تخطو خطوة عملاقة إلى الأمام فى عملية التطور، حيث يندمج علم وتكنولوجيا الحاضر مع بصيرة الماضى الروحية، وهذه الخطوة تحتاج إلى مزيد من العمل الشاق والفكر المتعمق. ومع أخذ الدافع الروحى لبنى البشر فى الاعتبار فإننى على يقين من أن مثل هذا الجهد آت لا ريب، حيث إننى أعتبر أن الزمن الحالى ليس زمن غضب وياس وخوف وإنما زمن أمل وإثارة وجهد. غير أنه ليس فى الإمكان تشكيل المستقبل على نحو سليم ما لم تتوفر لدينا رؤية واضحة لمشكلات الحاضر. ومشكلات الحقبة الحديثة تعتبر مشكلات جوهرية.

* تجدر الإشارة هنا إلى حرب الخليج والحرب فى أفغانستان كمثال للحروب غير النووية التى تحدث وقد خلف عددا كبيرا من الضحايا. (المترجم)

وهى حقيقة لأنها لا ترجع إلى سوء الإدراك، كما أنها مشكلات جوهرية لأنها تنشأ من جذور أنظمة القيم الحديثة، وتعانى الدول المتقدمة من الوفرة الزائدة أو ما يمكن أن يسمى بتعاسة الاستهلاك المفرط، يتضح هذا في حالة استهلاك الطعام، إذ يشكل الإفراط في الأكل مشكلة خطيرة تؤدي إلى السمنة وسوء التغذية والعديد من الأمراض المزمنة في تلك البلدان. كما يستغرق الحصول على أو اقتناء السلع المعمرة وقتاً طويلاً بحيث لا يتبقى وقت كاف للاستمتاع بهذه الأدوات والأجهزة، ولا تسفر الجهود التي تبذل بشدة للاستمتاع بها جميعاً إلا عن استمتاع زهيد بأى منها، ولقد أدى السعى الذي لا يتوقف نحو التقدم المادى إلى فقدان متعة العمل كما أدى إلى تفكك روابط الأسرة وخاصة بين الأزواج والأبناء والوالدين، وفي الوقت نفسه فإن الملل يؤدي إلى انتشار العلاقات الجنسية غير المشروعة وتعاطى المخدرات والعنف، ولذلك فإنه - مع انعدام التوجيه الأساسى - ستؤدي هذه النزاعات إلى وقوع الفوضى، كما أنها فى النهاية ستهدد الرفاهية المادية ذاتها.

فى الوقت ذاته تعاني البلدان النامية من ويلات الفقر، إلى جانب الفشل فى تحقيق الآمال المتزايدة لشعوبها؛ فمزال الجوع ووفاة الرضع من المأسى المنتشرة فى أماكن كثيرة من العالم. كما ساهمت الزيادة فى الأعمار المتوقعة فى جعل المشكلة السكانية أكثر سوءاً، وخاصة فى المناطق الحضرية، حيث يخفق الزحام الزائد احترام الإنسان وكرامته.

فبينما نجد الآن حولنا رموز التحديث منتشرة مثل السلع المعمرة كالتليفزيونات والسيارات إلا إنها ما تزال بعيدة المنال بالنسبة للفقراء، مما يؤدي إلى الإحباط والغضب ويشجع على الإرهاب والفوضى. وإن هذا الوضع يمثل لدى الطبقة المتوسطة دعوة إلى الفساد والظلم. ولذلك فإنه إذا لم يحدث تغيير أساسي وسريع فستحول هذه النزاعات بين كثير من البلدان النامية وبين قدرتها على تحقيق الاحتياجات الأساسية في المستقبل القريب. ونحن نشير هنا بالطبع إلى الاحتياجات الأساسية ناهيك عن تحقيق المزيد من العدالة في توزيع الثروة أو عن إقامة المؤسسات السياسية والديمقراطية.

إضافة إلى ما سبق فإن البلدان المتقدمة والنامية تشترك في كونها تحيا في ظل أخطار ثلاثة تأتي كلها كنتيجة مباشرة للتحديث وهي: الدمار أو الإبادة النووية، واستنزاف الموارد المتاحة، والتغيرات المناخية. فعلى عكس الحروب السابقة التي شهدها العالم فإن حروب هذه الأيام من الممكن أن تتشب فجأة وخلال عدة ساعات. وإذا حدث أن استخدمت فيها الأسلحة النووية فقد يؤدي الأمر إلى الدمار الشامل. وبالمثل وكما أوضحت الخبرة من خلال النقص المفعل في البترول فإن استنزاف الموارد المتاحة قد يؤدي إلى حدوث اضطراب سريع وخطير على نطاق لم يسبق له مثيل في عالمنا من قبل. ونظرا لسرعة مثل هذه الأحداث وخطورتها، فإنه يجب توقعها مسبقا لمنع حدوثها؛ لأنه إذا حدث أن وقعت بالفعل فسوف يصبح من العسير الاستجابة إليها أو تلافيها بسبب قوات

الوقت. ولنأخذ مثلا التغيير في ارتفاع درجة الحرارة في العالم الآن نتيجة لانبعاث الغازات من عوادم السيارات وغيرها من الآلات الحديثة. ورعم أن ذلك يحدث ببطء إلا أنه في النهاية يمكن أن يكون مدمرا بالنظر إلى تأثيره على مستوى سطح البحر وإحداث تغييرات مناخية. والسؤال الآن هو: هل الزيادة المستمرة في الاستهلاك المادى تستحق المجازفة لمواجهة كل هذه المخاطر، خاصة وأن هذه الزيادة في الاستهلاك لا تؤدي حاليا في الدول المتقدمة إلا إلى زيادة طفيفة في السعادة؟

وتكمن جذور هذه العلة في العالم الجديدة في افتراض أن الصراع هو مركز الحياة. وهذا المبدأ قدسته نظرية التطور البيولوجية Theory of Evolution ورؤية الماركسيين للتطور التاريخى والنظام العالمى الحديث للتنافس بين الأمم، ولقد ازدهرت الحضارة الأوروبية في ظل هذا المفهوم ولكن التطورات التكنولوجية الحديثة جعلته الآن شديد الخطورة على البشرية.

والواقع أن نظرية التطور البيولوجية تتوافق مع الحقائق البيولوجية وتتمسج معها. غير أن هذه الحقائق لا تدعم بالضرورة تفسيرات بعض علماء نظرية التطور، التى حفظها الخيال الشعبى، والتي تفيد أن الطبيعة فى نزاع وحرب وصراع مع نفسها من أجل البقاء. وقد يفسر لنا هذا الرأى لماذا يؤدي التطور إلى وجود مخلوقات بيولوجية أقوى، ولكنه لا يفسر لماذا لا تؤدي هذه العملية إلى ظهور مخلوقات أعلى فكريا وروحيا.

وكذلك فإن مبدأ الحاجة إلى البقاء لم يشرح السبب في أن الحيوان الأولى والمكون من خلية واحدة والمعروف باسم الأميبا Amoeba لم يتطور ليصبح مخلوقاً أكثر تعقيداً وضعفاً.

ولقد كانت لنظرية التطور القائم على الصراع تأثيرات بعيدة المدى على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث شجعت على قيام الصراعات بين الأفراد والجماعات والاستغلال الطائش لموارد الطبيعة، إلا أن حقيقة انتشار التطور إلى السلام بين البشر الآن تدل على الحاجة إلى إعادة النظر في هذه النظرية وإعادة دراسة تفسير التطور القائم على الصراع.

نظرية روحية للتطور:

نحتاج لكي نخرج من الأزمة الحالية إلى أهداف أكثر غنى من الفكر المادي وأدوات أفضل من النظرية العقلانية، فنحن في حاجة إلى النظر إلى داخلنا لنحصل على الرضا والثقة والاستتارة معا.

فالعلم والتكنولوجيا آليات قوية ولكنهما في حاجة إلى عجلات قيادة تحسن التوجيه. ويمكن للدين والقيم الروحية للبشر أن يقدموا المساعدة في صنع مثل هذه العجلات الموجهة. وإذا عاد المرء إلى الدين فعليه أن يحذر التعصب والظلم والعنف وهي أمور ترتكب باسم الدين. ولكي نتفادى هذه المخاطر فإن التبصر والقيم الروحية المستمدة من الأديان

يجب أن تتجاوز المذاهب العقلانية الكلاسيكية دون أن تتناقض مع المنطق والعلم. وبعبارة أخرى فنحن بحاجة إلى علم للروح ليكمل علم المادة.

هذا ولا يمكن لمثل هذا الاندماج بين العلم الكلاسيكي والدين الكلاسيكي أن يظهر إلا على مر السنين. ورغم أن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بمحددات هذا الاندماج، إلا أن الأمر يستحق دراسة النظرية الروحية للتطور. وتفترض مثل هذه النظرية أن التطور ليس عشوائيا أو بدون هدف ولكن توجهه الروح التي تشكل أساس كل شيء في الوجود. هذه الروح إلهية الإمكان وكلية القدرة والوجود حين تتحلى بالكمال، ولكنها لا تزال تكافح حتى يحدث الشعور بها. والإنسان هو أرقى أشكال هذا التجلي ولكن التطور لا يزال قصة ناقصة وغير مكتملة.

والنظرية التي تقول أن الغرض الأساسي من التطور هو تجلي القدرة الروحية الأساسية لكل المخلوقات نظرية غير علمية، نتجت عن وثبة حدث، ولا توجد طريقة مباشرة لاختبارها. غير أنها تتوافق مع حقائق العلم، ويبدو أنها تجيب عن كثير من الأسئلة المحيرة. وعلى سبيل المثال يبدو أن عملية التطور منتظمة، إلا أن الكائنات الأكثر تطورا ليست أقوى بيولوجيا، ولكن يبدو أن النموذج المتسق للنمو في ظل نظرية التطور يتعلق بالوعي الروحي. وتدل تجاربنا الخاصة في لحظات الحب والإبداع في العلم والفن على وجود هذه الإمكانية الإلهية أو الوعي

الأعلى. كما يدل عليها أيضا وجود الأنبياء الذين يمثلون انفجارات للطاقة الروحية مشابهة للانفجارات النووية للطاقة المادية.

هذه الألوهية هي مجرد إمكانية فما زالت الروح تجاهد حتى تتجلى بالكامل في حياة البشر، وليس هناك إله كامل القدرة وشامل الرحمة ليشملنا برحمته ويخلصنا من تعاستنا.* لكن الحياة ليست مجرد تعاسة، فلو كانت كذلك فلماذا لا يقتل المرء نفسه أو الآخرين؟ ولكن الحياة وسيلة تحقق من خلالها الروح تجلياتها الكاملة، وهذا هدف الحياة النبيل، ولذلك فإن قتل أى نفس يعتبر خطيئة إلا إذا كان القتل يساعد بشكل ما في عملية التطور الشاملة.

وفي الوقت الذى يدمج الأفراد الروحية الأساسية للحياة كلها فى ذواتهم يفتح ما بداخلهم من ينبوع الحب والجمال، مثل «أحب جارك كما تحب نفسك فأنت موجود فى عمق أعماقه». وهذا الرأى يعطى أعمق معنى لمبادئ الحرية والمساواة.

فالبشر المختلفون متساوون كتساوى أجزاء الجسم المختلفة، فالرأس والقلب مختلفان ولكنهما يتساويان فى الأهمية، ولا بد أن يترك لكل عضو حرية أداء وظيفته المحددة بدون تدخل من الأعضاء الأخرى. وبذلك فإن

* تختلف هذه النظرة للإله فى بعض الأديان الأخرى حيث إنه مثلا فى الإسلام يوجد إله كامل القدرة ويشمل برحمته كل تعاسات الإنسان. (المترجم)

الوعى بالألوهية المشتركة يساعد في التغلب على الإحساس بالوحدة ويقوى روابط الأسرة والجماعة.

ويؤدى اعتقادي في التطور الروحي إلى منهج في الحياة اسمه التناغمية Harmonism وتشمل هذه التناغمية ثلاثة مبادئ أساسية:
أولاً: كلنا أجزاء من نفس الروح.

ثانياً: نشترك في أعماقنا في هدف يتمثل في مساعدة مسيرة الروح على التقدم نحو الحقيقة والحب والجمال.

ثالثاً: إننا نجد السعادة بقدر مساهمتنا في العمل على تحقيق هذا الهدف المشترك.

هناك تناغم رئيسي في المصالح بين كل الكائنات الحية في العالم. فالصراعات بين الإنسان والطبيعة، وبين الرجل والمرأة، وبين الأمة والأمة، وبين العمال وأصحاب رأس المال كلها أمور سطحية ومصطنعة. وليس معنى هذا التقليل من أهمية الصراع أو قوى الشر؛ فغالبا ما نكون في صراع مع أنفسنا بسبب جهلنا ونزعتنا الشريرة، وكذلك نكون في صراع مع الآخرين بسبب جهلنا أو جهلهم أو نزعتنا أو نزعاتهم الشريرة. لذلك يجب علينا أن نخضع صراعاتنا مع الآخرين لنفس الحب والتفاهم الذي يخضع له الصراع داخل نفوسنا. كما يجب علينا أن لا نؤله الصراع على أنه قانون الحياة فهو لا يقيم الحياة وإنما يؤدي إلى الموت.

وتوفر التناغمية أو التناسق الحل العلاجي أو الترياق المعالج لأزمة العالم الراهنة. فهي تؤدي إلى نهج قائم على الاستجابة للاحتياجات بدلا من النهج القائم على تلبية الرغبات. فالنهج القائم على الاستجابة للاحتياجات يقلل من سرعة استنزاف الموارد الطبيعية في البلدان المتقدمة ويراجع أساليب نمو الاستهلاك والظلم في البلدان النامية.

يمكن للعلم والتكنولوجيا بعد أن نجحا في تأدية دورهما المطلوب أن يحققا الاحتياجات المادية للبشر. ومن المعروف أن الدخل السنوي للفرد في الولايات المتحدة الأمريكية يصل إلى حوالي عشرين ألف دولار، وربما إذا تم رفع الكفاءة فإنه لا يمكن المحافظة على مستوى المعيشة نفسه لأكثر من بليون شخص. ولكن إذا ما استخدم مبدأ معدل الاستجابة للاحتياجات فإن دخلا يقدر بألفي دولار للفرد يكون كافيا، وتستطيع موارد العالم أن تكفي حوالي عشرة بلايين شخص بهذا المستوى من الدخل إلى مالا نهاية. ويمكن للمجتمع الإنساني أن يمضي قدما في مهمته الخاصة بالتنمية الروحية إذا ما تمت مراعاة الاحتياجات المادية للبشر، وسيكون على المجتمع الإنساني في النهاية أن يحيا بموجب نهج الاستجابة للاحتياجات. وبذلك يكون باستطاعتنا أن نوفر على أنفسنا كثيرا من الوقت والضيق بالإدراك الطوعي لهذا الأمر قبل أن يرغمنا على ذلك وقوع النزاع واستنزاف الموارد على نطاق واسع.

وكما أن علم الاقتصاد يدرس الرفاهية المادية للمجتمعات فإن علم
التناغم أو التناسق يدرس الرفاهية الروحية للمجتمع. ويتعامل علم
الاقتصاد مع المقايضات Trade Offs والصفقات المتكافئة Zero Sum
Games والتبادل الداخلي بين الأشخاص وبين الأجيال. وفي هذا السياق
فإننى إن أعطيت شيئاً فهذا يقلل مما أملكه من هذا الشيء. أى أننى إذا
استخدمت موارد اليوم فإننى أقلل مما يتبقى لى منها فى الغد. ولكن نجد
قانوناً مخالفاً لذلك تماماً يسرى على بعض الموارد وبالتحديد ما يتعلق
منها بالمعرفة والحب والجمال. فكلما أعطيت منها كلما زاد ما عندى
وكلما نهلنا منها كلما عظمت هذه الموارد. وعلى خلاف الموارد المادية
فإن المعرفة لا يستنزفها الاستخدام بل إنها تنمو بالاستخدام، فإذا ما منحت
الآخرين ما لدى من المعرفة فإن ما لدى لا ينقص بل فى الواقع يصبح
أكثر وضوحاً فى ذهنى، وبالمثل فليس هناك حد لكم الحب المتاح، فإذا
منحت الحب للآخرين فأنا لا أقلل ما عندى منه وإنما ببساطة أتلقى المزيد
منه، وبإمكان حدود الحب أن تتسع وتتسع دون أن يخسر القابعون فى
دوائره الداخلية. كذلك بالنسبة لموضوع الجمال فمثلاً مشهد الغروب
الجميل أو القصيدة الجميلة أو اللوحة الجميلة يمكن أن يكون مصدراً
لبهجة الفرد دون أن يفقد الآخرون شيئاً. ولقد بلغت الحضارة الإنسانية
آفاقاً جديدة بعد عصر النهضة فى أوروبا حين طبقت النظرية التناغمية
على المعرفة. فحينذاك لم تبق المعرفة سرا تحتكره الأقلية وإنما يتسع
نطاق تطبيقها والمشاركة فيها فتمت بسرعة وتضاعفت، والأمر يحتاج

إلى تطبيق نظرة مماثلة على الحب والجمال. فالحضارة الإنسانية سوف تتقدم بخطى واسعة حين تركز البشرية على توسيع دائرة الحب لتشمل الآخرين من البشر والطبيعة من حولهم.

ولن يكون المجتمع القائم على التناغم مجرد مجتمع قابل للبقاء، بل سيكون أكثر من ذلك بكثير. فقد وجد في السابق كثير من المجتمعات البدائية التي كانت قابلة للبقاء. ولكن سيوجد بدلا عن ذلك مجتمع قابل للبقاء يحده التقدم الروحي بقوة ويوفر له الإثارة التي افتقدت بشدة في السنوات الأخيرة. فالتقدم الروحي هو الترياق المعالج للملل القابع تحت سطح كثير من علل العالم الحديث.

التناغمية والتنمية:

السؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما الذي يمكن عمله لترجمة نموذج التناغمية إلى عمل؟ وبتحديد أكثر: ما الذي يمكنني أن أفعله لمساعدة هذه العملية؟ إن الأمر يحتاج إلى ثورة فكرية تحول النظرة للحياة القائمة على الصراع والنزاع إلى نظرة تناغمية تدعو إلى مزيد من الاهتمام بمصادر البهجة الداخلية ومزيد من التقدير للصوت الداخلي الذي يتردد في نفوسنا جميعا. ولا يمكن تحقيق هذه الثورة الفكرية إلا عبر فترة طويلة ومن خلال محاورات العقلاء في كل مكان. ويعد وجود اتجاه ثابت من الكتابات عن العلاقة بين العالم والروحانية أمرا مشجعا جدا وخاصة في

الولايات المتحدة الأمريكية حيث من الممكن أن يحدث اندماج تدريجي بين العلم والدين.

ولابد لهذه التغييرات أن تستغرق وقتا طويلا إن كان لها أن تحدث. وتقضى الحاجة الملحة إلى مناقشة هذه الأمور بطريقة حرة وصريحة في الجامعات وغيرها من الأماكن. وتعطى جماعة صباح الجمعة في البنك الدولي مثلا لما يمكن عمله في أماكن كثيرة. إذ إن المحاورات والمناقشات ستحدد النموذج الجديد على مر الأيام وستأتي حتما الأفعال بعد الأفكار.

ولكن من الممكن الشروع في الفعل على الفور. فكثير من جوانب مهمة البنك الدولي تتسق مع النموذج الجديد الذي يحتاجه العالم.

أولا: فكرة الترابطية *Interdependence*. فالفلسفة التناغمية تركز على الترابطية بدلا من الاستقلالية. ويقول منهج البنك الدولي بأن التنمية في صالح الجميع؛ فالنمو في البلدان النامية يساعد على النمو في البلدان المتقدمة والعكس بالعكس.

ثانيا: أهمية تلبية الاحتياجات الإنسانية. بدأ البنك الدولي منذ منتصف السبعينيات الانتباه إلى ضرورة أن يأخذ خطوات لتلبية الاحتياجات الأساسية لأكثر الناس فقرا في البلدان النامية. ويتفق هذا الجهد مع الفلسفة التناغمية نظرا للإمكانية الروحية للإنسانية. وقد ساعدت على مدى سنوات عمل في البنك على تشجيع السياسات وبرامج الاستثمار التي تساهم في تلبية الاحتياجات الأساسية للفقراء وليس

مجرد الاستجابة لرغبات الأقلية التي تحتل القمة. ويمثل القضاء على الجوع وتقليل نسبة الوفيات بين الرضع وتعزيز الجهود المبذولة في مجالات الصحة والتعليم والبحث والتكنولوجيا من الهموم اليومية التي تذكي حماس صاحب الرسالة عند عمله في البنك الدولي وخاصة في المهام التي قمت بها مؤخرا، المتعلقة ببلدان جنوب صحراء أفريقيا، حيث تتزايد وتعظم الاحتياجات الإنسانية.

ثالثا: التركيز على الواجبات أكثر من الحقوق وخاصة على المستوى القومي. فالقضية ليست قضية حقوق العالم النامي وإنما قضية واجبات الدول المتقدمة في تقديم المساعدة وواجبات البلدان النامية في ضمان بيئة تشجع النمو مع المساواة. وتعتبر هذه العناصر - الترابطية وتلبية الاحتياجات الأساسية والتركيز على الواجبات - أمورا أساسية في الفلسفة التناغمية. ويساهم عمل البنك الدولي في ترجمة هذا النموذج إلى برنامج عملي، ولكن الأمر يحتاج إلى المزيد من الجهود لتحديد استراتيجية تنموية مناسبة ولدفع نمو المؤسسات المالية الدولية.

استراتيجية جديدة للتنمية:

ما زالت فكرة سد الفجوة الفاصلة عن البلدان المتقدمة تحظى بجاذبية سياسية كبيرة في البلدان النامية. ولقد جعلت تكنولوجيا النقل والمواصلات

بقاء أساليب الحياة المتخلفة جنريا في أجزاء مختلفة من العالم أمرا غير محتمل ولا يمكن استمراره إذا حدث. وعلى أى حال يجب ألا تحاول البلدان النامية تقليد أساليب الحياة القائمة حاليا في البلدان المتقدمة. فهى مهما كانت غير مرضية للكثيرين فى تلك البلدان وغير قابلة للبقاء على نطاق عالمى. وإنما يجب على البلدان النامية أن تجعل الحركة فى الاتجاه الذى تحاول البلدان المتقدمة السير فيه وليس فى اتجاه نحو ما هم فيه اليوم. وعلى البلدان النامية أن تتبع إستراتيجية وقائية للتنمية. فهى على سبيل المثال يجب أن تتجنب نموذج البلدان المتقدمة الذى يجعل النمو الاقتصادى يركز على الاستخدام المكثف للطاقة. كما يجب عليها أن تكبح نمو أنظمة الرفاهية والرعاية الاجتماعية الباهظة التكاليف والمشكلة على نمط تلك التى وجدت البلدان المتقدمة الآن وجوب تقليصها والتخلص منها. الواقع أن كل البلدان تحتاج الآن أن تتجه نحو أساليب الحياة التى تجمع بين التقدم المادى واستخدام العقل والنهج والحس الداخلى، ويتمثل هذا فى الأسلوب الذى يتم التركيز عليه فى آسيا؛ فإن إستراتيجية تستند بقوة على كل ما قال به آدم سميث بشأن آلية السوق وما أتى به المهاتما غاندى من نظام للقيم تعد بالكثير. ومن الممكن تسميتها فلسفة آدم-غاندى. ولقد أوضح آدم سميث قبل مائتى عام أن هناك توافقا أساسيا بين مصالح كل من يسعون إلى تحقيق مصالحهم الخاصة وأن اليد الخفية للسوق تقدم لهذا التوافق أفضل مساندة. ومنذ ذلك الحين والاقتصاديات

القومية تنمو مترابطة، وما قاله آدم سميث بشأن الأفراد داخل المجتمع يمكن أن يقال الآن عن البلدان داخل إطار الاقتصاد العالمي. وأفضل وسيلة لمساندة المصالح الاقتصادية للأمم منفصلة ومجتمعنة هو آلية السوق التي تعمل بحرية مع تجارة حرة في البضائع وعوامل الإنتاج. والأمر في شأن الأمم مماثل له في شأن الأفراد، إذ ربما يكون من الضروري اللجوء لعمل إيجابي من نوع ما لتصحيح مساوئ أولية. وستساهم آلية السوق على المدى الطويل ليس فقط في رفاهية العالم وإنما في اقتسام عادل لموارد العالم. ويتمثل أقوى برهان على سلامة هذه الفرضية في التحسن السريع في مستويات المعيشة على مدى الثلاثين عاما الماضية في البلدان التي دخلت حديثا في عالم الصناعة، وخاصة تلك التي اتبعت سياسات تتوجه نحو التجارة.

وبينما لا يتناقض السعي إلى المصلحة الذاتية مع تعزيز المصالح العالمية فإن مهمة قوى السوق تصبح أسهل إذا كان نظام القيم المساند حابحا للإفراط في المصالح الذاتية قصيرة الأمد. فإفراط الرأسمالية لا يرجع إلى آليات الأسعار والأسواق وإنما إلى نظام قيم يؤله الشر والصراع. وبإمكان آلية السوق أن تعمل بفاعلية أكبر إذا وعى الأفراد حدود احتياجاتهم والرضا الذي ينتج عن مساعدة الآخرين.

هذا وبمقدور "الغاندية" أن تتحالف مع اقتصاديات السوق في تعزيز اقتسام رفاهية العالم. فقد بشر غاندى شأنه شأن غيره من قادة العالم

الدينيين بالحب والمشاركة واجتتاب الشر. وتستطيع هذه الفضائل جنبا إلى جنب مع اقتصاد السوق أن تساعد على تشجيع نموذج عالمي يتوفر فيه العدل وقابلية الاستمرار. كما أن تقييد الشر قد يساعد على تقييد سوء الاستخدام المفرط للموارد الطبيعية، أما التركيز على المشاركة فقد يساعد على تقويم المساويى الأولية لبعض الأفراد والأمم.

إنشاء مؤسسات عالمية:

ترتبط أمم العالم الآن اقتصاديا ويقتضى الأمر تقوية المؤسسات الدولية المكلفة بمسئولية عالمية نحو التنمية الاقتصادية والتخلص من الفقر. وتعتبر المقترحات الجوهرية التى تتحدث عن نقل ضخم للموارد من الشمال إلى الجنوب مقترحات غير معقولة أو ممكنة، إلا أن المؤسسات المالية الدولية القائمة تحتاج إلى تغييرات جوهرية وأساسية.

فيجب على صندوق النقد الدولي The International Monetary Fund (IMF) أن يتطور ليصبح بنكا مركزيا دوليا حقيقيا تكون له صلاحيات إصدار العملة مما يمكنه من تلبية أفضل لمتطلبات أهدافه فى رعاية استقرار الأسعار والتجارة وأسعار تبادل العملة. وفى مثل هذا النظام ستصبح حقوق السحب الخاصة Special Drawing Rights (SDRs) وهى عملة الاحتياطي الدولي التى أصدرها صندوق النقد الدولي بالفعل، وستصبح هى العملة الوحيدة للاحتياطي والمعاملات

التجارية الدولية وستحل محل الدولار الأمريكي وغيره من العملات المستخدمة حاليا على نطاق واسع. وبعبارة أخرى فإنه يجب أن تكون هناك عملة واحدة لكل المعاملات التجارية الدولية.

وتقوم حاليا الولايات المتحدة الأمريكية على اعتبارها المصرف المركزي للعالم بالاقتراض الهائل وبدون فوائد من كل البلدان التي تبقى دولارات تحت التصرف. ولكن، وكما تبين للمملكة المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد أكثر من نصف قرن من القيام بدور المصرف المركزي للعالم، فإن ذلك يمكن أن يشوه إدارة الاقتصاد الداخلي أو المحلي، كما أنه يعد عبئا ثقيلًا ومدمرا إذا ما قامت به دولة واحدة.

كذلك تحتاج الأنشطة الحالية للبنك الدولي The World Bank إلى تطوير، فالحاجة واضحة إلى مزيد من التمويل الرسمي وعمليات نقل التكنولوجيا وذلك للمساعدة في تنمية البنية الأساسية Infrastructure العالمية وتخفيف الفقر ومواجهة مشكلات الطاقة التي طال أمدها في العالم. ومن الممكن اختيار عدد من موارد التمويل الجديدة والمحتملة ومن بينها إمكانية تخصيص جزء من حقوق المسحب الخاصة SDRs والمخصصة مركزيا لأغراض تنموية، وذلك دون أن تتكلف أي بلد شيئا. كذلك من الممكن أن يكون لوكالة التنمية صلاحية تقاضي الضرائب من أثرياء العالم مباشرة سواء الموجودون منهم في البلاد النامية أو أولئك

الموجودون في البلدان الصناعية. وعن طريق هذه الاعتمادات يستطيع البنك الدولي أو أية مؤسسة جديدة أخرى تكون أوسع تمثيلاً وأقل تقييداً بالحكومات أن توفر أو تمنح القروض بفوائد أقل ولفترات سماح أطول لكل المشروعات التي تقوم على تخفيف الفقر أو مشروعات إمدادات المياه أو برامج التطعيم ومشروعات الإسكان منخفض التكاليف ومشروعات تنظيم الأسرة، وذلك بالنسبة لكل البلدان وليس فقط في البلدان النامية ذات الدخل المنخفض. ويجب على هذه المؤسسة أن تجعل هذه الاعتمادات متاحة ليس فقط للحكومات بل أيضاً للمنظمات غير الحكومية بما في ذلك المنظمات الخيرية.

كما يجب أن يكون هناك توسع هائل في برامج واستثمارات البنك الدولي الحالية في قطاع الطاقة لتشمل موارد أخرى. هذا ومن المحتم أن العالم في النهاية سيحتاج إلى مؤسسة دولية للمساعدة في تطوير الموارد المعدنية وخاصة البترول وإعادة استخدامها والحفاظ عليها. ويجب أن يتم تمويل هذه الأنشطة عن طريق الاقتراض من البلدان المصدرة للنفط ذات الدخل المرتفعة، وكذلك عن طريق فرض الضرائب على أولئك الذين يعملون في استخراج واستكشاف الموارد. هذا وفي حالة استخدام مثل هذا النظام لتنظيم تنقل الموارد دولياً فسنجد أن البلاد المتقدمة لن تكون في حاجة إلى تقديم المعونة أو تقديم التجارة أو التنازل عن الديون للبلاد

النامية حيث ستكون المعونة الدولية من الأغنياء أينما كانوا وإلى الفقراء حيثما وجدوا، وهو الأمر الذي سيعطى معنى أخلاقيا أكثر تحديدا من المعنى المرتبط بتقديم المساعدات والمعونة على أساس الانخفاض في معدلات الدخل. كما أنه في إطار هذه العملية ستستطيع المنظمات غير الحكومية أن تقوم بدور أكثر أهمية من الدور الذي تقوم به الحكومات.

تعتبر هذه الأفكار أفكارا مثالية وخيالية، كما قد تبدو بعيدة عن حقائق الواقع الجافة في العالم. ولكن على أي الأحوال فنحن في مرحلة من التاريخ أصبحت لا تكفي فيها التعديلات الهامشية التي طالما تمسكنا بها، فنحن في حاجة إلى فتح آفاق جديدة للرؤية ولل فكر المثالي. وأعتقد أن التقدم في هذا المجال سيتحقق مهما كانت ظروف الحاضر كثييرة أو خطيرة وذلك بسبب الطبيعة الإنسانية الأصيلة. وإذا ما اشتملت عملية التطوير حقا على تنمية بيولوجية وروحية فإن هذه الطبيعة الإنسانية ستكشف عن نفسها في الوقت المناسب. والتحدى القائم أمامنا الآن هو أن نساعد على حدوث ذلك في أقرب وقت وبدون تأخير.

إن مناقشات مثل تلك التي تدور صباح كل جمعة في البنك الدولي بين المهتمين من الخبراء والساسة والمواطنين يمكنها أن تعجل بحدوث هذه العمليات، وفي الوقت نفسه تساعد على تجنب الإنسانية للانعطافات غير المثمرة.

آفاق مظلمة وآمال مضيئة

ديفيد بيكمان

تكونت شخصيتي منذ الطفولة في إطار العقيدة المسيحية لحب الله، وكان أبواي يتمتعان بطاقة حب غير عادية، وأدركت دائما أن الرب هو المنبع الذي يستقيان منه هذا الحب، وكنا ننتمي إلى إيراشية الطائفة اللوثرية Parochial Lutheran ونعيش في إحدى المدن الهادئة في ولاية نبراسكا Nebraska. ولكن أبويّ كانا منفتحين على أفكار جديدة وعالم أوسع. ولقد ظلت العقيدة المسيحية - التي تعلمتها في طفولتي التي تفيد بأن البركة الإلهية تجلت في شخص يسوع المسيح Jesus Christ - نبعا دائما وعميقا لمتعتي في الحياة. وظلت هذه المتعة تظلل حياتي العائلية الدافئة والمتينة مع زوجتي وأبنائي حتى الآن.

ولقد التحقت بالجامعة خلال فترة حرب فيتنام وظهور حركة القوة السوداء Black Power Movement. هذا وقد زاد عمق إحساسي، شأنى شأن عدد كبير من الطلبة بالظلم الاجتماعي داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك في علاقتنا مع الدول النامية. وبعد التخرج سافرت إلى آسيا، وعشت فترة في أفريقيا، ثم قضيت بعد ذلك عاما عشته في ولاية نبراسكا وحاولت فيه أن أصنع الثورة من خلال ممارستي للتدريس، حيث ألقيت محاضرات عن القضايا السياسية الجارية، كما ساعدت على

التقريب بين طلاب الجامعات المحلية وزعماء الاتحادات العمالية. ولكن نظرا لأن التغييرات الاجتماعية كانت أعمق من التربية السياسية والتنظيم فقد قررت أن أدخل كلية اللاهوت Seminary.

بعد التخرج من كلية اللاهوت طلبت من الكنيسة أن أصبح مبشراً اقتصادياً Missionary Economist لكي أساعد على الربط بين العقيدة المسيحية والقضايا الاقتصادية وخاصة فيما يتعلق بقضية الفقر في العالم الثالث.

هذا ولقد تعلمت من الدراسات العليا في الاقتصاد التعقيدات المتعددة التي تصادفنا حين نحاول تطويع نظريات العرض والطلب للحصول على النتائج المرغوبة أخلاقياً، إضافة إلى ذلك فقد علمتني خبرة العمل والتي بدأتها بمهمة في بلدة في شمال غرب بنجلاديش تسمى Stint المزيد من الاحترام لتعقيدات المشكلات الاجتماعية.

وبعد عدة سنوات من عودتي إلى البنك الدولي بدأ مؤلفو هذا الكتاب نشاط اجتماعات جماعة صباح الجمعة Friday Morning Group وأصبحت هذه الجماعة ذات تأثير كبير في حياتي وعلمتني المناقشات فيها إلى أي حد يجب أن أتعلم من البصيرة والخبرة الدينية للآخرين. ولازلت على يقين من أن المسيح هو كلمة الله المحددة إلى هذا العالم، ولكنني كنت أتخيل أن هذا كان يعني بشكل ما أن علي أن أكون صاحب الكلمة الأخيرة

فى كل المناقشات الدينية ولكن بالتدرىج تعلمت كيف أقدر وأحترم ما يمكن لأصحاب العقائد الدينية الأخرى أن يعلموه لى. فقد مكنتنى جماعة صباح الجمعة من اكتساب نظرة أوسع وأكثر فهما للمسائل الدولية. وىناقش مقالى هذا مسألة البرهان على أن بقاء حضارة العالم الراهنة، بل وربما بقاء الإنسانية نفسها يعتمد على تشكيل وصياغة تاريخنا الذى ىتفتح أمام أعیننا فى نموذج أخلاقى إلى درجة تفوق ما هو علیه الحال الآن. وأعتمد فى هذا على الرجوع إلى النصوص الخاصة بأنبياء العهد القديم فى التوراة Old Testament Prophets للمساعدة على فهم الخطر المحقق بنا. فالحوار مع أصحاب الديانات الأخرى أمر ضرورى لإدراك شمول مبادئ الأخلاق، وكذلك الرجوع إلى العقيدة المسيحية ذاتها لنستمد منها الدافع والأمل.

الحاجة إلى التغير:

تتعرض الحضارة الإنسانية اليوم إلى أخطار تحيط بها من عدة جهات، ومع ذلك فنحن لا نستطيع توجيه الجهود الكافية لمواجهة تلك الأخطار، ولعل أوضح خطر هو الحرب النووية التى تهدد بنسف قدرة كوكب الأرض على الحفاظ على الحياة البشرية. ولقد أعطتنا التحركات الدرامية فى العالم الشيوعى فى اتجاه الإصلاح فرصة تاريخية لتقليل مخاطر الحرب النووية، فعلى مدى أربعين عاما شكلت المواجهة بين

الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية خطر نشوب الحرب النووية في العالم. حيث نجد على أحد جوانب ميزان القوى العظمى الاتحاد السوفيتي * بقوته الديكتاتورية ونزعتة العسكرية وانعزاله النسبي، وعلى الجانب الآخر نجد الولايات المتحدة الأمريكية وتصعيدها في الثمانينيات لسباق التسلح وتدعيمها للحرب الباردة.

وماتزال هناك بالطبع مصادر كثيرة للنزاع في العالم، إذ يتزايد عدد الدول التي تمتلك الأسلحة النووية ويبدو أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتمكن الإرهابيون من الحصول عليها أيضا. ولقد أتاحت عملية الإصلاح في البلاد الشيوعية إمكانيات جديدة لاحتمالات استخدام العنف بين الجماعات العرقية بسبب الاختلاف حول مسار وطرق الإصلاح. إلا أنه مهما ثبت من تعثر واضطراب في حركة الإصلاح فقد قضت على الأساس الأيديولوجي للحرب الباردة. ولقد أحرزت القوتان العظميان تقدما كبيرا في التفاوض حول تخفيض التسلح، ويتعاونان الآن للتحكم أو العمل على تهدئة نزاعات قومية وإقليمية.

ويجب علينا أن نتابع تلك الاحتمالات بعزم أشد، فعندما غزت العراق الكويت عام ١٩٩٠ تحركت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية

* تجدر الإشارة هنا إلى أهمية التطورات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي وما حدث له من تفكك وانتهيار بعد استقلال الدول المكونة له. (المترجم)

بسرعة وكتلت الجهود الدولية لتحشد القوات العسكرية في السعودية لتكبح جماح العراق.

ولقد كانت هذه الاستجابة السريعة لخطر الحرب ضرورية، ولكن لماذا لم تتحرك الولايات المتحدة الأمريكية بنفس الحماس لتغتنم فرص ما بعد الحرب الباردة من أجل السلام؟ لقد كان من الممكن إحراز تقدم أكبر في مفاوضات نزع السلاح لو تم بذل مجهود أقوى، كما كان من الممكن المساعدة على إقرار السلام في السلفادور وكمبوديا والقرن الإفريقي لو تم بذل مجهود أقوى. وربما كان بالإمكان أيضا المساعدة في مواجهة مشكلات قائمة من زمن طويل مثل المشكلة الفلسطينية والتي تجعل أي نزاع في الشرق الأوسط أكثر تفجرا.

وتبلغ قيمة الإنفاق العسكري على نطاق العالم كله ألف بليون دولار في العام* وهذا الإنفاق يزيد بكثير عن مجموع الدخل في الدول النامية ذات الدخل المنخفض، والتي تمثل في مجموعها نصف تعداد سكان العالم. وبالرغم من ذلك انغمس العالم في حرب ضيقت أرواحا كثيرة وتكلفت ما يقرب من بليون دولار في اليوم الواحد.

ويعيش في العالم الآن ما يزيد على بليون نسمة على دخل يوازي أقل من دولار واحد في اليوم للفرد الواحد. وبالطبع فإن أصحاب مثل هذا

* هذه التقديرات تزيد مع مرور الوقت منذ كتابة هذا المقال. (المترجم)

الدخل لا يستطيعون عادة الحصول على ما يكفيهم من الطعام ليعيشوا حياة نشطة أو كاملة الإنتاجية. وبالمثل ترتفع نسبة الوفيات بين الرضع والأطفال بسبب سوء التغذية وضعف الرعاية الطبية وتلوث مياه الشرب. وإن استمرار الفقر والجوع على هذا النطاق الواسع يشكل، بعد خطر الحرب النووية، ثاني أخطر تحدّي أخلاقي يواجه جيلنا.

فيزيد الفقر الشامل من مخاطر الحرب العالمية، لأن الفقر يستثير العنف خاصة عندما يزداد الفقراء فقرا. وتبين الحالة في كل من إيران وأمريكا الوسطى كيف أن النمو غير المتساوي وما يتبعه من تضخم وكساد يمكن أن يمهد الطريق للعنف السياسي، كما أنه يزيد من إمكانية حدوث المواجهة بين القوى العظمى. فيرجع غزو العراق للكويت جزئيا إلى انعدام المساواة الإقليمية والإحباطات الاقتصادية. وإن إمكانية التقدم الاجتماعي والاقتصادي على نطاق واسع في الدول النامية أمر واضح وجلّي حيث تضاعف متوسط الدخل في الدول النامية ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٨٠. وحققت بعض الدول النامية التي أدخلت الصناعة حديثا وصدرت البترول دخلا ونموا اقتصاديا لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري، وحتى في الدول النامية ذات الدخل المنخفض ارتفع متوسط الدخل بمقدار ٥٠% وزادت نسبة البالغين الذين يستطيعون القراءة من ٢٠% في عام ١٩٥٠ إلى ٥٠% في عام ١٩٨٠. كما قفز المدى العمري

للفرد Life expectancy من ٣٥ سنة إلى ٥٠ سنة. والأسباب وراء هذه الإنجازات تتمثل في الجهود المركزة التي بذلت في البلاد النامية وأيضا إلى المساعدات التي قدمتها الدول الصناعية عن طريق تقليل العوائق أمام الواردات وزيادة المعونات الخارجية. وكان عقد الثمانينيات فترة صعبة بالنسبة لمعظم الدول النامية؛ وذلك لأن بعض المكاسب الاجتماعية التي تحققت بشق الأنفس في العقود السالفة قد تم التراجع عنها، وأدى الركود العالمي وأزمة الديون في عام ١٩٨٢ إلى إيقاف عجلة التقدم الاقتصادي. إلا أن الأزمة الاقتصادية كان لها جانب إيجابي واحد فقط، يتمثل في فقدان الكثير من النظم الاستبدادية والتسلطية Authoritarian regimes مصداقيتها، مما أدى إلى ظهور بعض الاتجاهات نحو الديمقراطية بين دول العالم النامي. واستطاعت دول كثيرة من آسيا أن تستعيد صحتها الاقتصادية Economic recovery بسرعة وعادت الآن إلى النمو السريع. ولكن آفاق التقدم الاقتصادي في أمريكا اللاتينية وفي إفريقيا جنوب الصحراء لازالت ضعيفة. كما يقوم الآن عدد من البلدان النامية بدفع فوائد للديون تزيد على ما يتلقونه من الاستثمارات أو المعونات الجديدة. كما أن منتجات كثير من الدول النامية تباع بأسعار بخسة، بالإضافة إلى أن الدول النامية تواجه بقوانين الحماية الجمركية المتزايدة في البلاد الصناعية. وفي ظل هذه الظروف لا عجب أن نرى كثيرا من

الدول النامية في أزمة، ولكن يزداد العجب إذا عرفنا أن قلة قليلة في البلاد الصناعية هي التي تهتم بالفقر الموجود بعيدا عنها، وتلج هذه القلة على حكوماتها في أن تتبنى أو تتخذ سياسات تجارية أو مالية لمساعدة البلدان النامية والواقعة تحت ضغط الحاجة. كذلك تتزايد أحوال الفقر في داخل الولايات المتحدة الأمريكية حيث نجد الآن شخصا واحدا من بين كل سبعة من الأمريكيين يعيش تحت مستوى خط الفقر Below the poverty line وتبلغ هذه النسبة أقصاها بين السود والأسبان لتغطي واحدا من كل ثلاثة أفراد من هذه الفئات. كما أن حالات الفقر بين الأطفال تزداد، مع العلم بأن المصادر المتاحة لبرامج تغذية الأطفال وتعليمهم تتناقص بشكل حاد، كما أن مشكلة التشرّد تعتبر فضيحة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأدت المصاعب الاقتصادية العالمية في السبعينيات والثمانينيات إلى اتخاذ قرارات صعبة فيما يتعلق بالسياسة العامة Public Policy . وكان الاختيار في الولايات المتحدة يتجه إلى طريق مواجهة التضخم Inflation وتخفيض الضرائب وفي الوقت ذاته تقوية الجيش، وذلك على حساب الركود والكساد الطويل الأمد والازدياد في سعر الفائدة وتحميل الديون للجيل القادم من الأطفال وتقليل الإنفاق على الفقراء. وبذلك أصبح الجميع على استعداد لتحمل العقبات المتعلقة بارتفاع نسبة البطالة العالمية وازدياد الفقر محليا ودوليا. وتعد مشكلات البيئة ثالثة المخاطر التي تهدد

الحضارة الإنسانية. فالقوة التكنولوجية أصبحت تسبق قدرة الطبيعة على تجديد نفسها، ونرى ذلك بشكل متكرر على المستويين المحلي والقومي، ويتمثل ذلك في هواء مدننا الملوثة أو في بقع الزيت التي تملأ شواطئنا*.

وتعد الدلائل الواضحة على زيادة ثقل العبء الملقى على كاهل كوكبنا الأرض أقوى نذير، حيث يوجد الآن اتفاق عالمي على أن مختلف الكيماويات التي تخلفها الحضارة الصناعية تعتبر مدمرة لجو كوكب الأرض. وقد أدت الكلوروفلوروكربونات Chlorofluorocarbons (CFCs) - وهي عائلة من المواد الكيميائية تدخل في العمليات الصناعية- إلى إحداث ثقب في طبقة الأوزون Ozone وهي الطبقة التي تحميها من أشعة الشمس المهلكة. كما يحدث أيضا تجمع للعديد من المواد الكيميائية وعلى رأسها ثاني أكسيد الكربون Carbon Dioxide الناشئ عن الاحتراق والذي يؤدي إلى احتباس أشعة الشمس في الجو، الأمر الذي سيؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة على نطاق العالم أجمع، كما ينتج عنه تغيرات لا يمكن التنبؤ بها في الطقس، وربما فيضانات في

* تجدر الإشارة هنا إلى مشكلة التلوث في الجو بصفة عامة في العالم ومشكلة بقع الزيت وما لها من آثار بصفة خاصة، مع الإشارة إلى ما حدث في الولايات المتحدة بسبب Exxon أو إلى ما حدث في حرب الخليج من تسرب للبتروول أمام شواطئ الكويت والسعودية. (المترجم)

المناطق الساحلية والتي يتسبب فيها الارتفاع في درجة حرارة المحيطات ارتفاعا تدريجيا وتمدد هذه المحيطات. وبالإضافة إلى ما تقدم فإن سرعة النمو السكاني بين الفقراء تستهلك قدرة الطبيعة في بعض البلاد النامية. فالفقراء الذين يبحثون لهم عن أرض يهاجرون إلى البقية الباقية من الغابات الاستوائية أو المناطق التي تقع على أطرافها. وتؤدي محاولاتهم لزراعة تلك المساحات إلى تدمير الغابات وبالتالي تحويلها إلى صحارى، وهم بذلك يقوضون الأساس الذي يمدهم بالحياة. فنحن نفقد وفقا لأحد التقديرات ربع التنوع الحيوى فى الأرض Biodiversity خلال جيل إنسانى واحد وذلك يرجع فى أغلبه إلى فقدان الغابات الاستوائية Tropical Forests.

وتعتمد حماية البيئة فى البلدان النامية اعتمادا كبيرا على الإبطاء فى النمو السكاني وهذا يعتمد بدوره جزئيا على تحسين الرعاية الاجتماعية. فتوسيع فرص التعليم أمام الإناث وتخفيض نسبة الوفيات بين الرضع أمور لها دور كبير فى تقليل النمو السكاني. إلا أن الضغوط المالية الحالية تقيد الإنفاق على التعليم وتنظيم الأسرة وحماية البيئة.

إن القضية الأساسية المتعلقة بالبيئة التي تواجه البلدان الصناعية تتمثل فى السؤال التالي: هل نحن مستعدون لتخفيض استهلاكنا بدءا من اليوم لنصون مواردنا للمستقبل؟. نحن لا نعلم ما ستتكلفه معالجة تحديات

مثل الارتفاع في حرارة الكون، ولكن خبرتنا في حالة ارتفاع أسعار البترول تدل على أن الحفاظ على الموارد يجب ألا يقف عائقا في وجه النمو الاقتصادي.

فقد أدى ارتفاع أسعار البترول في السبعينيات إلى توجه جانب كبير من الاستثمارات إلى مجال حفظ الطاقة. وقد كانت هذه الاستثمارات مكلفة ولكنها سمحت باستمرار النمو الاقتصادي وفقا لنمط أقل استهلاكاً للطاقة. ومازلنا نستطيع خلال الجيل التالي أن نبتعد عن استهلاك الموارد غير المتجددة دون أن نضع نهاية للابتكارات والكفاءات التي أدت في الماضي إلى زيادات تدريجية وواسعة النطاق في الرفاهية الاقتصادية.

ويرى البعض، ومنهم راجوبال آجاروالا وسفن بير ميستر في هذا الكتاب، أنه يمكن لمعظم الناس في البلاد الصناعية أن يعيش في مستوى أفضل بمستويات دخل أقل. ولكنني لا أوافق على ذلك؛ فزيادة الدخل، مع الحكمة في إنفاقه، ستؤدي على سبيل المثال إلى تحسين التعليم الذي نقدمه لأبنائنا، أو يعمل على تخفيف القيود المالية المفروضة على توفير الرعاية للمسنين. إلا أن الكثير من الرخاء الاقتصادي والذي تحقق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تم إنفاقه بطريقة جنونية وذاتية التدمير. فالحضارة المادية تشجعنا على السعي إلى السعادة والإحساس بقيمتنا عن طريق الامتلاك والإنفاق، ولكن الملايين الذين خدعتهم تلك الآمال الزائفة يحسون بالإحباط في حياتهم.

وفي الوقت نفسه فإن المادية الشديدة تستهلك قدرا كبيرا من الطاقة الإنسانية والموارد المادية التي يمكن توجيهها إلى حل المشكلات التي تهدد عالمنا. فالأفراد والدول عظيمة الثراء بالمعايير التاريخية والدولية تحس أنها لا تستطيع أن تتفق مزيدا من الوقت أو المال لتقليل الفقر، فبينما تحترق روما نلهو نحن بأجهزة الفيديو.

إن المشكلات التي تهدد بقاء الحياة الإنسانية هي مشكلات عالمية، ولكن هذا لا يعنى أنها بعيدة عنا. فمن خلال التلفزيون يستطيع ضحايا المجاعات في أفريقيا والطلبة المتظاهرون في الصين أن يخاطبوا الناس مباشرة في ولايتي مونتانا والميسيسيبي Montana & Mississipi. كما أن ما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية سواء أكان تغييرا في سعر الفائدة أم تحولات في الرأي العام يؤثر عادة في العالم كله.

إن مشكلات العالم معقدة وخلافية، إلا أن هذا التعقيد يجب ألا يخفى جوانبه الأخلاقية، فالورطة التي يعيشها كوكبنا لا تدور أساسا حول تعقد مشكلاتنا، وإنما هي بالأحرى تتمثل في أنه لا توجد لدينا الدوافع الأخلاقية الكافية لمعالجة المشكلات التي تهدد العالم بكل قوانا، أو لاقتناص الفرص الواعية لمعالجتها. إن كسلنا المعنوي ينشأ من مشكلات في أعماق أعماق حياتنا.

المصادر البيئية للتغيير:

تحذيرات الأنبياء:

لا يحتاج الأمر لنبي ليقول لنا إن الرفاهية والرخاء يعتمدان في معظم الأحوال على الأفعال الأخلاقية القومية. ولقد أكد أنبياء العهد القديم ذلك، وأوضحوا التحديات التي يواجهها البشر، كما علموننا أن الله هو مصدر كافة البركات. وقالوا إنه لا القوة العسكرية ولا القدرة الاقتصادية استطاعت أن تضمن أمن ورخاء بني إسرائيل، وإنه على الملوك أن يقدوا شعوبهم في طريق العبادة والتقوى بما في ذلك الجوانب المتعلقة بالعدالة الاجتماعية. وعلى شعب بني إسرائيل ويهوذا أن يميزوا ويتبعوا ما كان الرب يفعله في زمانهم ويتقوا في أنه سيمنحهم دائما بركاته ورعايته.

وكما جاء في أناجيل Deuteronomy فإن مملكة إسرائيل ويهوذا كانتا عادة تتجاهلان هذه النصيحة، وتميز تاريخهم بوجود هوة كبيرة بين الفقراء والأغنياء، وكذلك بالانقلابات والانقلابات المضادة بين المطالبين بالعرش. وإذ أنك الصراع الداخلي قواهم عانوا تدريجيا من إخضاع القوى الأجنبية لهم.

لقد فقدت هاتان المملكتان الشرعية والأخلاق التي كانتا تحتاجان إليها لاكتساب الولاء الداخلي. وهذا فقدان للأخلاق هو جزء مما قصده الرسل بقولهم إن الله كان يحاسب إسرائيل ويهوذا على خطاياهم. ويعتقد الأنبياء

أن الرب يؤدي دورا فعالا فى التاريخ وأن كلمته وحدها كافية لك
العروش وإحياء الآمال. وعلى سبيل المثال فقد أدان النبى أموس
Prophet Amos الصفوة الإسرائيلىة بعنف وقال إنهم يبيعون "الفقر من
أجل قطعة فضة والمعوز من أجل زوج أحذية"، وإن الله سيدمر إسرائيل
على يد جنود أمة معادية، وقال كاهن المعبد الملكى للملك "إن أموش
يتآمر ضدك فى إسرائيل وإن البلد لا تستطيع احتمال ما يقوله".

وأخشى أن نفس النمط من القيادات العاملة لمصلحتها يتكرر فى
زماننا بما فيه من صراع وتحطيم للمعنويات. فأمم اليوم الغنية والقوية
تخلق سخطا عالميا عندما تهمل المشاكل الكونية. كما أنها تضعف من
قدرتها على جعل نموذج التضحية ملهمة لمواطنيها، وبالتالي تتعرض
لخطر الانقسام الداخلى. فهكذا تحلت فى الزمن القديم إسرائيل ويهوذا من
داخلهما. ولكن الأمر الذى نخاطر به اليوم لم يعد مصير أمة واحدة حيث
إن أمم العالم اليوم مرتبطة ببعضها بدرجة لم يسبق لها مثيل. فنحن لا
نخاطر اليوم بهدم المدن أو تدمير أمة، وإنما بإيادة مناطق شاسعة بأكملها،
بل وقد تشمل الإبادة الكائنات الحية كافة على سطح الأرض. ولقد أصبح
الكثيرون فى الدول الصناعىة والديمقراطىة متشككين فى المؤسسات
العامة، كما فقدوا إيمانهم بأن دولهم تعضد الخير فى العالم. إن أعظم خطر
يهدد الأمن القومى لهذه الدول هو إيصابة مواطنيها بخيبة الأمل. والأخطر

من ذلك هو عمق عدم الاستقرار في البلاد التي كانت تخضع للحكم الشيوعي حيث انقابت الشعوب ضد عقود من الظلم والخداع الرسمي. ولقد جربت بلدان العالم الشيوعي بذل الجهود لإحياء ما عفى عليه الزمن من قومية وأيديولوجية Nationalism Ideology إلا أن هذه الشعارات تعتبر مصادر إلهام هشة وضيقة وخطيرة. ولذلك فالأمر يحتاج بدلا من ذلك إلى جهد مستمر من جانب البلدان القوية والغنية نسبيا في كل من الشرق والغرب لجعل العالم أكثر تمسكا بالأخلاق. وإذا كان نظام العالم World order مرنا ويخدم الإنسانية أو على الأقل يتطور في اتجاهات إيجابية فسوف يلهم الناس بالولاء وبالتضحية اللازمين. وسوف تدعم ذلك الولاءات القومية داخل الأمم التي تقود العالم في اتساق مع القيم الإنسانية الأساسية وكذلك الإحساس بالمسئولية تجاه البشر في كل مكان. إن العقوبة الإلهية نفسها التي تكشفت في التاريخ القديم لإسرائيل ويهوذا تحلق اليوم فوق الحضارة الكونية. ويعلمنا الكتاب المقدس Bible "أن الله صبور وأنه ليس مستعدا لاحتمال انعدام الأخلاق في صناعة التاريخ إلى الأبد".

عالمية الأخلاق:

في المجتمعات التعددية الحديثة كثيرا ما يكتف الناس في صدورهم الكلام عن الدين والأخلاق فيما يتعلق بالسياسة العامة Public Policy.

ولقد نشأت التقاليد العلمانية (الدنيوية) Secular في تلك المجتمعات كرد فعل للصراعات الدينية المريرة التي حدثت في الماضي. وأصبحت المؤسسات الاقتصادية والسياسية منفصلة عن الأيديولوجية والمؤسسات الدينية. وفي إطار المؤسسات العلمانية يتوقع من الناس أن يحترموا تعددية العقائد وأن يلتزموا الصمت إزاء الخلافات الدينية، وذلك يسهل على من تختلف عقائدهم أن يعيشوا ويعملوا معا.

إلا إن عادة الصمت إزاء أهم ما في الحياة تؤدي أيضا إلى مشكلات. فنجد الشئون الاقتصادية والسياسية تدار في استقلال عن المبادئ الأخلاقية، مع نفي الدين إلى واحة الدلالة الخاصة Oases of private meaning. ولذلك فقد أصبح من المهم التعرف على درجة اشتراك الناس من مختلف الديانات والثقافات في بعض القيم. وإن درجة شيوع بعض القيم في أرجاء الكون توفر أساسا لحوار حضارى مطعم بالأخلاق لمناقشة المسائل العامة. فالناس في كل مكان يتفقون على القيم التقليدية كالأمانة والاهتمام بالآخرين، وتفسر الثقافات المختلفة هذه القيم تفسيرات مختلفة ولكن الجميع يتفقون على أنها أساسيات للسلوك السليم.

وبالإضافة إلى ذلك تشترك شعوب العالم اليوم في بعض المثل الاجتماعية الحديثة. مثل التقدم والعقلانية Rationality. ولقد صيغت مثل هذه القيم بوضوح لأول مرة زمن الثورة الصناعية وعصر التصوير

Industrial Revolution & the Enlightenment. ولقد انتشرت في أرجاء العالم مع انتشار الإدراك بأنه قد أصبح من الممكن تحسين الحياة في هذا العالم بواسطة التقدم التكنولوجي وإعادة ترتيب النظم الاجتماعية ترتيباً مقصوداً. هذا وما إن أدرك الإنسان مثلاً أنه يمكن التغلب على الفقر حتى تحول الاهتمام التقليدي بالآخرين إلى تشجيع المناداة بالتنمية والإصلاح الاجتماعي. وهذا هو السبب في أن الهندوسية والبوذية والمسيحية والإسلام قد أدمجت تلك المثل العليا الحديثة في تعاليمها الأخلاقية المعاصرة. ولقد جعلتنا فظائع القرن أقل ثقة في تلك المثل الاجتماعية العليا الحديثة. فكلمات مثل التقدم والعقلانية تتطوى عند الكثيرين على التفاؤل المرتكز على الذات الذي ساد أوروبا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر. وبالرغم من ذلك فإن هذه المثل العليا في أشكال معدلة انخرست في الثقافة المعاصرة وعلى نطاق العالم كله. ولم تجسر حتى الحركات المعادية للثقافة في البلاد الصناعية ولا الحركات الحاقدة والمعادية للغرب في إيران مثلاً على رفض فكرة الحداثة Modernity كلية. وفي الواقع الآن نجد أن العالم يتمتع بقدر معقول من التمسك Constitution الأخلاقي وهو مصطلح تعني أصوله اللاتينية الوقوف معاً مما يسمح لنا بمناقشة علمانية للمسائل العامة. وفي البنك الدولي تعمل جماعات من الناس ممن ينتمون إلى أمم مختلفة جنباً إلى جنب، بحيث نجد أنه ليس من الصعب إجراء المناقشات للأخذ بنهج دون

آخر، وذلك باللجوء إلى القيم الأخلاقية التي تعتبر مشتركة بين الجميع تقريباً. ويؤكد الخط الرئيسي للاهوت المسيحي Christian Theology أن المعايير الأخلاقية الأساسية التي يوضحها الإنجيل (ببلاغة فائقة في الوصايا العشر) لا تتفرد بها التعاليم الإنجيلية. وكذلك تقول التعاليم الكاثوليكية Roman Catholicism إن معظم الأخلاق هي "قوانين طبيعية" بنيت عليها شخصية المجتمع الإنساني. والأمر بالمثل في حالة التعاليم اللوثرية Lutheran Tradition التي أنتمى إليها، فتقول إن الرب يكشف عن جزء من ذاته. وهو ما يسميه مارتن لوثر اليد اليسرى للرب في قوانين الطبيعة والمجتمع الإنساني. ويعتبر لوثر أن يد الرب تعمل عندما تؤدي السرقة إلى السجن أو يؤدي الظلم الاجتماعي إلى العنف. وليس من الضروري أن تؤمن بالمسيح لتعرف الفرق بين الخطأ والصواب أو لتصدق بما يقوله العهد القديم عن الاختيار الأخلاقي والحساب. هذا وإذا كان لدى المسيحيين معايير أخلاقية متميزة وخاصة بهم، فإن الجهود التي تبذل لتطبيقها كمعايير عامة في المجتمعات المتعددة والدينية سيكون أمراً في غاية الصعوبة ويدعو للانقسام وعدم العدل. ولكن لما كانت القيم التي جاءت في الإنجيل تتفق مع بقية القيم العالمية الإنسانية فإن أقوال الأنبياء التي جاءت في الإنجيل يمكن أن تتوجه مباشرة وبدرجة مصداقية عالية إلى العالم الحديث.

الرسالة المسيحية:

إن الرسالة المتميزة التي أتت بها المسيحية تتعلق ببركة الرب. فيؤمن المسيحيون أن الرب دخل التاريخ في شخص يسوع المسيح Jesus Chirst واختار المسيح أن يعذب ويعانى على يد أهل العنف بدلا من أن يقاوم بالقوة، وفي موت المسيح يستعيد الرب سيطرته على خلقه بطريقة مذهشة. ليس باستعراض القوة وإنما بالتسامح والمحبة، ويعطينا بعث المسيح Ressurection of jesus الأمل في أن التسامح والمحبة سوف ينتصران في النهاية. أما عن مسألة وجود المسيح حيا في قلب الكون فهذه مسألة إيمان. ولكن الأمر الواقع هو أن الكنيسة المسيحية قد بدأت عندما اقتنع تلامذة المسيح أن الله قد بعثه حيا من بين الأموات. وقد نشرت الحركة التي بدأوها في العالم كله رسالة مفادها أن الحب هو الواقع النهائى والأقرب. كذلك فإن مسألة ما إذا كان الحب الذى تبدى فى المسيح سيمسود العالم فى النهاية أم لا فهذه مسألة إيمان. ولكن الواقع أن كثيرا من البشر يتأثرون وأحيانا تحدث لهم تغيرات هائلة بفعل الرواية المسيحية عن حب الرب. إن بركة الرب، التى تجلت بشكل خاص فى المسيح، يسميها مارتن لوثر "يد الرب اليمنى"، فالبركة هى طريقة أخرى يعامل بها الرب الناس وهى تختلف اختلافا واضحا عما نلاحظه عادة من الرب فى الطبيعة والتاريخ. فنحن نلاحظ عادة الأسباب والنتائج، أو على وجه

الدقة فى المسائل الأخلاقية الخطيئة والحساب ولكن الرسالة السماوية تعلمنا أن الرب قد غفر لنا خطايانا وأنه بطريقة أو بأخرى سيخلص العالم كله من الحساب المروع الذى قال عنه الأنبياء.

وهذه الصلاة من رسالة فى العهد الجديد New Testament إلى أهل أفسوس Ephesians (١٤: ٣-١٩) تعبر عن خبرة مسيحي فى حب الرب:

اسجد فى الصلاة للأب الذى تستمد منه كل أسرة فى السماء والأرض اسمها أن يسبغ عليكم من كنوز عظيمته القوة ومن روحه العزم ليدخل فى كيانكم. وأن يجعل الإيمان بالمسيح يسكن قلوبكم فى محبة. وأن يفوبكم بجذور عميقة وأسس متينة حتى تتركوا مع كل شعب الرب عرض وطول وارتفاع وعمق محبة المسيح. وأن تعرفوها رغم أنها أبعد من أى معرفة. لذلك ندعو أن تتألوا كمال الوجود وكمال الرب نفسه.

إن محبة الرب مرضية إلى درجة هائلة مثلها مثل المحبة الإنسانية الحميمة. ولكنها غير مشروطة بمعرفة كاملة. وتؤثر تلك الخبرة على كافة نواحي حياة المسيحيين، بما فى ذلك تناولنا للمسائل الدولية. فإنها توفر حافزا أخلاقيا ومعنويا قويا، وهذا بالضبط الأمر الذى يحتاجه العالم

بشكل ملح. فمحبية المسيح تلهم المسيحيين ألا يهدأوا إزاء العنف وعدم المساواة، حتى لو كانت هذه الأمور مقبولة اجتماعيا أو تبدو أفضل ما يمكن توقعه في ظل ظروف صعبة. إن وجود الروح القدس يتجلى في التوق إلى العدالة، وهو الأمر الذي يقلق كنائس أمريكا اللاتينية وخاصة الكنيسة الكاثوليكية في البرازيل، فتحت وطأة فظائع الديكتاتوريات العسكرية في السبعينيات اضطر قادة الكنيسة إلى التخلي عن الدور التاريخي لمؤسستهم وأصبحوا نقادا لما تعانيه البرازيل من قسوة انعدام العدالة الاقتصادية. وحولوا كثيرا من الرهبان والراهبات من العمل بين الطبقات المتميزة إلى العمل بين الفقراء. وعلى مر السنين ساعد رجال الدين في إقامة عشرات الآلاف من الجماعات المحلية الأساسية Base Communities حيث يتجمع في تلك الجماعات الصغيرة الفقراء ليعبدوا الرب وينظموا أنفسهم للتغلب على الفقر والظلم.

وفي بعض الأحيان والأماكن تساند الكنيسة قوى القمع والكرهية. ويصل الأمر إلى أن تكون الكنائس مملعة. ولكن يحدث أن الروح القدس تخترق الحواجز أحيانا وبطريقة تهز العالم هذا كما حدث ضد الاستبداد في بولندا أو في الفلبين، أو من أجل السلام في السلفادور ونيكاراجوا أو في مواجهة الفقر كما يتمثل في آلاف من المشروعات لتنمية المجتمع التي تتبناها الكنيسة في أنحاء كثيرة من العالم. وفي الولايات المتحدة الأمريكية

نجد حالات كثيرة كانت للكنيسة فيها المبادرة في تنمية المجتمع بين الجماعات المنخفضة الدخل. ويبرز اسم مارتن لوتر كينج Martin Luther King Jr. كنموذج فريد للنضال ضد الفقر والظلم المحليين. وقد أصبحت الكنائس في الولايات المتحدة الأمريكية تدريجياً أكثر فاعلية في التعامل مع الفقر على نطاق عالمي. ففي الخمسينيات بدأت الكنائس عملاً منظماً في الدول النامية من خلال منظمات مثل خدمات الإغاثة الكاثوليكية Catholic Relief Services والخدمات الكنسية العالمية Church world Service وفي الستينيات بدأ الفاتيكان Vatican ومجلس الكنائس العالمي World Council of Churches في معالجة مسائل السياسة العامة للإنماء الدولي. وفي السبعينيات بدأت الكنائس في الولايات المتحدة الأمريكية في تكوين جماعات ضغط في الكونجرس بشأن الإنماء العالمي وأنشئت منظمات مثل الخبز للعالم Bread for the world وهي حركة للمواطنين المسيحيين نظمتها الأبراشيات والدوائر الانتخابية. وقد تبدو تلك الجهود تافهة مقارنة بالمشكلات العالمية، إلا إن الجهود ذوات الدوافع القوية كثيراً ما تحقق فعالية مذهلة وتقدم الدعم الروحي والقيادة لجهود الآخرين. فالذين يؤمنون منا بأن المسيح كان كشف الرب الحاسم عن نفسه يتوقعون أن المحبة التي طال عذابها هي التي ستخلص العالم مما هو فيه وليس مظاهر القوة الدنيوية.

إن الخبرة المسيحية لبركة الرب تضيف إلى أملى فى البشرية. ولقد انتظر الرب لقرون طويلة قبل أن يتحرك فى النهاية ليُدمر إسرائيل ويهوذا. وأعتقد أن صبره كان من أجل أن يعطى العالم خيارات أفضل من المخاطر التى صنعناها بأيدينا. فإن الرب يدهشنا يوماً بعد يوم وعقداً بعد عقد، والإنجيل يعدنا بأن للرب خطته من أجل البشرية داخل التاريخ وخارجه، وهى خطط أفضل بكثير مما نستحق أو نتصور. وبسبب ذلك لا يعنى هذا أن نسترخى، بل على العكس فإن الأمل فى أنه مازال هناك وقت يجب أن يعطينا الشجاعة لمواجهة أخطار تدميرنا لأنفسنا بأيدينا، وكذلك يعطينا القوة لكى نغير أساليبنا. ويبدو أن الظهور الفجائى للديمقراطية فى كثير من البلدان النامية وكذلك الإصلاح السياسى والاقتصادى فى الكثير من البلدان الشيوعية هما فى الحقيقة من هبات الرب. فكلها تقدم لنا ما يسميه الإنجيل كيروس *kairos* أو لحظة يمد فيها الرب يده لإنقاذ شعبه ويناديهم ليستجيبوا له.

كاهن فى البنك الدولى:

لقد ظلت أعمل كأحد أعضاء أسرة البنك الدولى لمدة أربعة عشر عاماً، ولكننى أيضاً كاهن لوثرى أعمل استجابة لما تطالب به الكنيسة من تطبيق للعقيدة المسيحية وتعاليمها الأخلاقية فى حل المشكلات العالمية. وعندما التحقت بالبنك الدولى كنت أتوقع أن أبقى به لسنوات قليلة إلا أن

عملى به أكد لى أنه متسق مع الدعوة فى كنيستى. فالبنك مؤسسة ذات نفوذ وذات توجه علمانى وتعتبر أهدافه أخلاقية، وخاصة ما يتعلق منها بالتنمية الاقتصادية وتخفيض الفقر فى البلدان النامية، وتخضع القرارات فيه للاعتبارات المنطقية والأخلاقية. ومع بداية الثمانينيات أقلقنى أن نشاط البنك الموجه مباشرة إلى تخفيض الفقر قد قل معدله، إذ إن الأزمات الاقتصادية فى كثير من البلدان أدت إلى توجه البنك لتوفير المعونة إلى عدد كبير من الحكومات التى تجاهد من أجل استعادة الاستقرار المالى والنمو الاقتصادى. وكنت فى ذلك الوقت ممن يعدون الخطب التى يلقيها رئيس البنك وأحسست أنه من الضرورى أن نوضح كيف يعمل البنك فى الحفاظ على اهتمامه الخاص بتخفيض الفقر فى ظل هذه الظروف الصعبة. ولقد كتبت بحثاً أثار كثيراً من الجدل والمناقشات حول هذا الموضوع بين القيادات العليا فى البنك. وكان مما يشغلى أيضاً أن البنك الدولى ليس على اتصال وثيق بكثير من الجماعات الدينية والإنسانية التى تبذل جهوداً لتخفيض الفقر والجوع فى أنحاء كثيرة من العالم. هذا ولقد وافق البنك الدولى أن يعهد إلى مهمة تقوية علاقاته بتلك الجماعات. ولقد كان لرؤسائى فى البنك الفضل فى أنهم كانوا أقل اهتماماً بالعلاقات العامة وأكثر اهتماماً بالاستماع والاستجابة بشكل فعال لجوهر المسائل. وتمت دعوة قادة من الجماعات الإنسانية والدينية إلى البنك، وقام كثير منهم بحثاً على بذل المزيد من الاهتمام بالأنشطة التى يستفيد منها الفقراء

مباشرة. كذلك لفتت اليونيسيف UNICEF وغيرهما من المؤسسات الانتباه إلى ما يتعرض له الفقراء نتيجة لأزمة التنمية الدولية في الثمانينيات. وفي داخل البنك الدولي قاد عدد من أعضاء جماعة يوم الجمعة الجهود التي تبذل من أجل إيجاد أفضل الحلول لمساعدة الفقراء في البلدان المتأزمة. هنا ولم ينقض وقت طويل حتى عادت سياسة البنك إلى التركيز على تخفيف وتخفيض الفقر.

بعد ذلك طلب منى أن أساعد في تدعيم علاقة البنك بالجماعات المهتمة بالبيئة، فقد وجهت جماعات مثل صندوق الدفاع عن البيئة Environmental Defense Fund والاتحاد القومي لرعاية البيئة البرية National Wildlife Federation النقد إلى البنك لعدم بذله المزيد من الاهتمام بالآثار المتعلقة بالبيئة في مشروعاته. ولقد منحت لى صلاحيات مثل تلك التي منحت لى في مسألة الفقر لجعل البنك يستجيب بشكل فعال لهذه المسائل. ولقد ساعد هذا الجهد في الإعداد لبرنامج العمل الطموح المتعلق بالبيئة والذي بدأه البنك عام ١٩٨٧.

ومع بداية عام ١٩٨٨ بدأ البنك الدولي جهدا منظما لإشراك الجمعيات والمنظمات غير الحكومية Non-governmental Organizations (NGOs) في عملياته. ولقد قُدت فريق عمل صغير لرعاية هذه الجهود والاعتناء بها. واليوم تساهم المنظمات غير الحكومية

في أكثر من خمسين مشروعاً من مشروعات البنك كل عام، في حين إنها كانت في الماضي لا تشارك إلا في حوالي خمسة عشر مشروعاً في السنة. ومعظم تلك المنظمات غير الحكومية تتعامل مباشرة مع القاعدة الشعبية العريضة في البلدان النامية مثل اتحادات الفلاحين والجمعيات النسائية والهيئات الدينية والجماعات الأهلية التي تدعم الأنشطة البيئية والاجتماعية. وفي العادة لا يتعاون البنك الدولي إلا مع الحكومات، ولكن وجد أن المنظمات غير الحكومية يمكنها أن تساعد في أن تجعل البرامج الرسمية أكثر استجابة لمتطلبات الفئات محدودة الدخل. كما أن بعض تلك المنظمات غير الحكومية يمكنها أن توسع مجال تأثيرها ليمتد إلى التأثير على البرامج والسياسات الحكومية. ويرتبط نمو تأثير المنظمات غير الحكومية وانتشار الديمقراطية في البلدان النامية ببعضهما البعض، ويتبادلان الدور في دعم عمليات التنمية. ولقد طلب مني مؤخراً قيادة برنامج للعمل والتعليم لتقوية دعم البنك الدولي للمشاركة الشعبية في اتخاذ القرارات المتعلقة بالتنمية.

وهناك عدة دروس مستفادة من عملي في البنك الدولي يمكن أن تساعد الآخرين، وهي تتلخص فيما يلي:

أولاً: لقد دهشت من وجود تأثير روحاني حقيقي وملمس داخل البيروقراطية العلمانية. ولقد لاحظت أنه عندما دفعتني روح

المسيح لآخذ بعض المخاطر البيروقراطية كانت النتيجة تتمثل فى تحقيق التغيير بدرجة لم أكن أتوقعها وبصورة متكررة. ولقد أثارت المناقشات الأخلاقية استجابات مواتية لدى مختلف أنواع الأفراد فى أنحاء مختلفة من المنظمة* ورغم أن نجاحاتى لم تؤد⁴ إلى ارتفاع سريع فى السلم الوظيفى، فإنه يجب العلم بأن اتباع يسوع المسيح لم يعد بأنه سيوصل إلى قمة التنظيم البيروقراطى. ولكن ربما تكون تجربتى هذه ملهمة للأفراد الآخرين من ذوى النوازع الدينية الذين يعملون فى مؤسسات علمانية أخرى ليستمدوا منها الشجاعة.

ثانياً: لقد ظلت جماعة يوم الجمعة مصدراً مستمراً للتشجيع والوضوح الفكرى فى جهودى من أجل ربط العقيدة بالعمل فى البنك الدولى. وتشبه جماعاتنا آلاف الجماعات التطوعية الأخرى على مستوى العالم مثل جماعات دراسة الإنجيل، وجماعات المساندة الشخصية... إلخ. ولكن بفضل طبيعة العمل فى البنك الدولى فإن جماعة يوم الجمعة تربط بين أشخاص ذوى ثقافات متنوعة وعظيمة الاختلاف وتركز على مسائل أكثر عمومية وشمولاً. إضافة إلى أنه يوجد لدى الجماعة إحساس بهدف مشترك راديكالى يجمع جميع كنائس

* يقصد بالمنظمة هنا البنك الدولى. (المترجم)

العالم ecumenical ولكنه مع ذلك له خلفية دينية. وأعتقد أن الروح القدس Holy Spirit كانت تقودنا بالرغم من أن الكثير من أعضاء الجماعة لا يستسيغون هذا التعبير.

وأعتقد أنه يمكن تكوين جماعات مشابهة في سياقات أخرى عديدة، وخاصة في المؤسسات والمدن التي تضم أفرادا تختلف مشاربهم وقومياتهم وأديانهم، ويمكن لتلك الجماعات أن تحشد القوى الأخلاقية التي غالبا ما تحاصر داخل المؤسسات العلمانية.

ولقد حضر عدد قليل من أعضاء صندوق النقد الدولي International Monetary Fund اجتماعاتنا ثم بدأوا بعد ذلك في تكوين جماعة خاصة بهم. ولقد تناولت مناقشات جماعة صندوق النقد الدولي هي الأخرى موضوعات متعددة، ولكنهم أبدوا اهتماما خاصا بالإمكانيات العملية لتشجيع السلام العالمي. كما أنهم ناقشوا كيف يمكن لبرامج صندوق النقد الدولي أن تؤثر على الفقراء. ومن المعروف أن الحكومات الأعضاء في الصندوق لم تعط له أبدا تفويضا ليختبر الآثار الاجتماعية المترتبة على برامجها، و لكن بالرغم من ذلك نجد أن الإدارة في الصندوق قد أصبحت اليوم أكثر اهتماما بمعرفة آثار برامجها على الفقراء. هذا وتقوم هذه الجماعات الشقيقة بدور متواضع وغير رسمي ولكنه يشكل دعما مهما بالنسبة لمستوى العاملين في الصندوق.

هذا وهناك درس أخير مستفاد من عملي في البنك الدولي ألا وهو أهمية نشاط المواطنين في المسائل ذات الأهمية العالمية. فقد شحذت فعالية المواطنين جهود البنك الدولي بالنسبة للتركيز على كل من مشكلتي الفقر والبيئة. وتعتبر أهم مشكلات العالم الآن ذات أصل أخلاقي وسياسي، وغالبا ما تلعب فعالية الجماهير في المشاركة كعامل حاسم لترجمة الدوافع الأخلاقية إلى قرارات سياسية. ولذلك فإن فعالية المواطنين ضرورية في كل بلد، ويبدو أنها آخذة في النمو وعلى مستوى كبير ومحرك في أنحاء كثيرة من العالم. فإن وجود تنظيمات قوية يشترك فيها الفقراء أنفسهم يعتبر عاملا مهما لإحراز التقدم لمكافحة الفقر.

إن مشاركة المواطنين وفعاليتهم في الولايات المتحدة الأمريكية لها دور حاسم، حيث يمكن للمواطنين في الولايات المتحدة أن يمارسوا تأثيرا مباشرا على السياسات القومية، ويعتبر هذا أمرا مهما وخاصة بالنسبة للدور القيادي الذي تلعبه حكومة الولايات المتحدة في معظم المسائل العالمية. وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تسيطر على العالم كما كانت تسيطر عليه في الخمسينيات، فإنها مازالت تتمتع بقوة حق الاعتراض Veto Power بالنسبة للمسائل العالمية. ونجد مثلا أنه لو تلكأت* في معالجة مسألة الديون الخاصة بالدول النامية فإن كثيرا من

* المقصود هنا الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم)

الدول سيكون موقفها في الغالب عدم حشد الإدارة أو الموارد اللازمة لإيجاد حلول جريئة أو جسورة على المستوى العالمي.

وتعتبر الدوافع السياسية ذات المصالح الذاتية أقوى من دوافع الضمير، فمدينة واشنطن العاصمة Washington D.C. يمكن أن يطلق عليها أنها مائة مائة مليئة بجماعات الضغط والمحامين لفئات مختلفة ولكل منها مصالحها الخاصة. وتتخذ أكثر من ثلاثة آلاف مؤسسة من منطقة واشنطن مقرا لها، ويعمل في هذه المؤسسات أكثر من ثمانين ألف موظف. ومعظم هذه المؤسسات تمثل مصالح خاصة. أما الهيئات التي تمثل مصالح عالمية فهي أقل نسبيا وكذلك أضعف من ناحية التمويل. ونجد أن أكبر جماعات الضغط الكنسية وهي جماعة الخبز للعالم التي تعنى بالمسائل المتعلقة بالفقر على المستويين المحلي والدولي لا يزيد عدد موظفيها على الخمسين ويتقاضى العاملون فيها مرتبات هزيلة.

ورغم ذلك فقد أظهر التاريخ أن اهتمام الجماهير يمكن أن يحقق شيئا في الولايات المتحدة الأمريكية وفي العالم كله، حيث يمتلك قوة تغيير هياكل التفكير ثم تغيير السياسات، ونجد الأمثلة على ذلك واضحة في حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات والحركات الداعية للسلام وحركة العدالة الاجتماعية وحركة تجديد الاهتمام بالمخاطر النووية والمشاكل البيئية في الثمانينيات. وفي كل هذه الحالات كان للفئات الشعبية دور

فيادى ثم تبعتها الجهود الرسمية. وقد أوضح انبعاث الديمقراطية في كثير من البلدان في السنوات الأخيرة وبشكل قاطع قدرة الأفراد العاديين على إحداث التغيير السياسى.

هذا وبصفة خاصة فإننى أشد تشوقاً لظهور حركة عالمية ذات فعالية يمكنها أن تضع نهاية لجوع البشر أو المجاعات الكبرى المنتشرة Mass hunger. ولعل المهتمون بهذه المسألة يحتاجون إلى إعطاء المزيد من الوقت والمال للتنظيمات التى تعمل على مكافحة الجوع، وخاصة التى تستهدف وتعمل على التأثير فى السياسة العامة.

كما أن الهيئات التى تعنى بمكافحة الجوع على اختلافها تحتاج إلى التعاون وضم الصفوف مع الحركات المهمة بالبيئة، كما تحتاج إلى تعميق صلاتها مع المنظمات الشعبية فى البلدان النامية. وأخيراً يحتاج الدعاة والمهتمون بمجال مكافحة الجوع أن يعرفوا المزيد عن الروابط الاقتصادية العالمية، وخاصة ما يتعلق بمسائل الديون والتجارة حيث إن لتلك الروابط تأثيرات قوية على الفقراء.

وإننى أتطلع بأمل كبير إلى الكنائس فى الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الملحة فى زماننا هذا. فقد أظهرت المسيحية مراراً وتكراراً قدرتها على تفريخ حركات الإصلاح الاجتماعى وإعطائها القدرة على البقاء. والكنائس حالياً تصارع بالفعل فى خضم المشاكل العالمية، حيث يقوم الوعاظ بالتحدث عنها، وتقوم كذلك

مدارس الأحد Sunday Schools بتدريسها إضافة إلى أن الكنائس القومية تقدم الآن برامج ذات طابع عام للتعليم والنشاط السياسي. ولكن نقوم بدورنا المناسب إزاء الفرص والأخطار التي تواجه الإنسانية فإنه يجب على مسيحيي الولايات المتحدة الأمريكية أن يستندوا بعمق أكثر إلى المصادر الروحية التي وهبت لنا وأن يوجهوا مزيداً من طاقاتهم الروحية إلى معالجة المسائل الأخلاقية الشاملة والعالمية.

هل يمكن غروب الآلهة؟ ما بعد الإيمان بالعلم

سفن بيرميسير

ولدت في مدينة ريفية دانماركية في بداية الحرب العالمية الثانية، وكانت هذه الحرب تجربة مدمرة لأوروبا ماديًا ومعنويًا، فقدت خلالها القيم القديمة التي غرستها ونمتها الكنيسة اللوثرية Lutheran State Church التي ينتمى إليها تسعون في المائة من السكان مصداقيتها ولم تعد تحرز أي تقدم في الدانمارك؛ فقد عملت الدولة والكنيسة جنبًا إلى جنب ليعلموا الشعب قيم الواجب والإيمان والولاء للملك والوطن، ولكن مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ومع تزايد السخرية من دور الأخلاق في الشئون العالمية قل الاقتناع بالكنيسة.

وزاد من قوة الاتجاه العلماني الذي اتسمت به أحزاب أوروبا الاشتراكية الديمقراطية Social Democratic Labor Parties احتياج البلدان المضارة من الحرب إلى أن تجد لنفسها مخرجًا من الفقر عن طريق التقدم المادي، وبدا أن القيم الروحية لا تناسب هذه الظروف بينما كان العلم والتكنولوجيا مناسبين، وقد شهدت في حياتي تحول الدانمارك من فقر خلفته الحرب إلى مستوى من المعيشة يقول عنه علماء الاجتماع إنه من أعلى المستويات في العالم.

كنا فى البيت الذى شهد طفولتى لا نستطيع أن نوفر التدفئة لأكثر من غرفة واحدة وذلك خلال شتاء الأربعينيات القارس. ولم يكن لدينا مياه ساخنة ولم يكن لدى أى طفل أكثر من طقم واحد من الملابس، أما الآن فتتوفر التدفئة المركزية لكل بيت فى الدانمارك والأطفال لا يلبسون نفس الملابس فى يومين متتاليين. ولقد استطاع الديموقراطيون الاشتراكيون الذين أعطتهم أسرته التى تنتمى إلى الطبقة المتوسطة صوتها الوفى أن يتجاوزوا الكنيسة بشكل واضح، وذلك من خلال توفيرهم للدانماركيين حياة أفضل، ولكنها ليست بالضرورة الحياة الأسعد. ولقد توصل كثير من الدانماركيين فى السنوات الأخيرة إلى الاعتقاد بأن التقدم المادى لا يخلق السعادة بالضرورة كما تبين لقليلين منهم أن التقدم الروحى ربما يحقق ذلك. كان والدى يملك مطبعة صغيرة، كما كان له اهتمام شخصى بالكتب واللغات. وكان يتحدث الألمانية والإنجليزية بطلاقة حيث كان يستطيع محادثة بحارة سفن الفحم التى كانت تصل إلى مدينتنا قادمة من نيوكاسل Newcastle وكنت أحلم بزيارة إنجلترا فى وقت ما، وبالطبع فى ذلك الوقت لم أكن أدري أن أحلامي ستتحقق ومتجاوزة لأقصى توقعانى، وأنتى سوف أجوب العالم بشكل روتينى كجزء من عملى فى البنك الدولى.

وحين أتممت الدراسة الثانوية فى عام ١٩٥٩ كان يبدو أن العلم والتكنولوجيا هما الطريق إلى المستقبل، فقد قام السوفييت بوضع أول

• سبوتنيك Sputnik في مدار الفلك وخلال العشر سنوات التي تلتها قام الأمريكيون بالسير على القمر. وفي ذلك الوقت قررت أن أصبح عالمًا، ودرست الكيمياء العضوية، وهي المادة التي قمت بتدريسها فيما بعد، وكذلك أجريت أبحاثًا فيها. ثم قضيت عامين في جامعة صغيرة تقع على جبال الأنديز في بيرو. ولقد علمتني تلك التجربة أن العلم لا يكفي لتغيير الآفاق الإنسانية إلى الأفضل. فبعد سقوط إمبراطورية الإنكا Inca Empire تعرض هنود أعالي بوليفيا وبيرو للاستغلال من قبل الغزاة الإسبان وأحفادهم، وبالرغم من التقدم المادي والتكنولوجي في العالم من حولهم ظل الهنود في فقر مدقع، حيث كانوا فريسة سهلة لسيل ثوري ديماجوجي يفيض عليهم متتاليًا. ولقد كان قائد الحركة الثورية في ذلك الوقت زميلًا لي في الجامعة وهو أبيمال جوزمان Abimaal Guzman. ولقد تطورت حركته إلى أن أصبحت حركة الطريق المتوهج Shining Path الشائنة التي تأخذ بيرو الآن إلى الحرب الأهلية، ولأن خلفيتي العلمية جعلتني غير قادر على احتمال الأساليب الثورية الديموجاجية فقد شعرت كما أشعر الآن أنه وأقرانه مخطئون في تعصبهم.

ولكى أضيف إلى ما في جعبتي درست الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة برنستون Princeton University ثم وجدت طريقى إلى البنك الدولي. ومن الخبرة التي اكتسبتها عن طريق عملى فى البنك

الدولى فإبنى مقتنع أنه نجح فى مساعدة أكثر بلدان العالم فقرا على تحفبق
امالهم فى التقدف الاقصادى. ولقد أثنانى عملى هذا أنا شخصياً من خلال
ما تعلمته من لغات وثقافات فى البلدان التى عملت فىها ومعها.

وعلى مدى التسعة عشر عاماً التى عملت خلالها فى البنك الدولى
كان عملى مع بلدان أفريقية وآسيوية بالدرجة الأولى. ولقد أضفت اللغتين
البرتغالية والإيطالية إلى ما أعرفه من لغات إنجليزية وألمانية وفرنسية
وإسبانية، كما قمت بمحاولات ناجحة نسبياً لمعرفة اللغتين العربية
والصينية وكذلك لغة البهاسا الإندونيسية Bahasa Indonesia. ومع أن
هو ايتى هى تعلم اللغات فإبنى مقتنع بأنه حين يفشل البنك الدولى فى
جهوده التتموية فإن ذلك يرجع فى الغالب إلى أن المهارات التقنية
والاقتصادية للعاملين فيه لا يصاحبها فهم للثقافات المحلية.

ولعل أهم خبراتى فى البنك الدولى هى لقائى باثنين من أكبر
الشخصيات فى ميدان التتمية: وهما روبرت مكنمارا Robert S.
McNamara الذى عملت مساعداً شخصياً له لمدة ثلاث سنوات حين
كان يتولى رئاسة البنك الدولى، ويوهانز ويتفين Johannes Witteveen
مدير الإدارة السابق لصندوق النقد الدولى الذى شاركت على مدى سنوات
عديدة فى اجتماعات جماعته الصوفية.

ولقد علمنى مكنمارا أن التخيير يتحقق بشكل أفضل حين يضع

الأفراد أهدافا واضحة ويقومون بإعداد وتنفيذ خطط عمل مفصلة ولها جداول زمنية محددة، كما أن تنظيم النفس والثقة يعتبران من المكونات الرئيسية في هذه العملية.

وقد جعلني وتيفن متأثرا بفكرة أن التقدم الروحي هو غاية الحياة، وأن التقدم لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الجهد الذي يبذله الفرد في التأمل Meditation، كما أن المرء يجب أن ينخرط في الشؤون اليومية لبنى البشر، وأن يحاول العمل على تحسين أحوال الآخرين، ولكن في النهاية يجب عليه ألا يعبأ بنجاحه أو فشله الشخصي.

ولقد رأيت في أفريقيا أسوأ أنواع الفقر واليأس. فلقد رأيت الذباب في عيون أطفال إثيوبيا الذين يعانون من سوء التغذية. وعجبت كيف يكون لأفريقيا أن تتقدم طالما استمر عدد سكانها في تزايدهم السريع، وكذلك عملت في بلدان في شرق آسيا حيث رأيت النجاح الذي حققته برامج التنمية. ومن كل هذه التجارب ازداد اقتناعي بأن الأمر يحتاج إلى شيء أكثر من الرفاهية المادية سواء لتحقيق الإنماء والتطوير الشخصي أو فيما يتعلق بالبشرية ككل. وأصبحت مقتنعا بأن جهودنا قد لا تأتي بأي ثمار مهما كانت النوايا حسنة، وذلك إذا ما افتقرت مساعيها الفردية أو الجماعية إلى مضمون روحي.

الحد الفاصل:

أعتقد أننا ربما نكون عند حد فاصل في التطور الإنساني، وأن هناك طرقاً كثيرة ممكنة. ولكن يبرز من بينها اثنان: طريق يؤدي إلى فناء البشرية، وآخر يؤدي إلى تحقيق حلم البشرية الذي طال أمده للوفاء باحتياجات البشر المادية. فقد توفر لنا من خلال العلم والتكنولوجيا الوسائل التي يمكننا بها التخلص من الفقر، وإن كنا في الحقيقة لا نستطيع أن نعطي كل إنسان ما يرغب فيه إلا أننا نستطيع أن نؤمن لكل أبناء البشر الحصول على ما يحتاجون إليه، وهذه الحالة لم تكن على هذا النحو من قبل عبر تاريخ البشرية كله.

ويعتقد الناس دائماً أن الزمن الذي يعيشون فيه هو إما أفضل زمن وإما أسوأ زمن. وإذا أخذنا في اعتبارنا ما وصلنا إليه من معرفة فإننا نستطيع أن نبتسم إذا تذكرنا الخوف الذي كان يلم بالناس وقت كسوف الشمس أو الرعب الذي كان يثيره القوس والنشاب وقت استحداثه، ونحن نعلم أن الحياة لا تتطور على مسار سهل مستمر دون حدوث وقفات عنيفة. بل العكس تماماً، فقد بدأ العالم مع انفجار هائل big bang وظلت النجوم والشموس في تفجر وزوال مستمرين. ولقد اختلفت مخلوقات ومازالت تختفي أخرى. وإنه من الممكن أن نلقى أنفسنا نفس المصير الذي آل إليه الديناصور. ومن جهة أخرى، فإننا نجد أن التطور إلى جانب ظهور الهندسة الوراثية، يمكن أن يأتي بمخلوق خال من نزعة

العدوان الإنسانية الطبيعية، وبالتالي لا يمكن أن يكون أكثر ملاءمة منا للحياة في بيئة قابلة للبقاء المضطرد. ولقد ساعد العلم والتكنولوجيا على بقاء الإنسانية، ولكننا نعلم أنه يمكن لقوتها الرهيبة أن تبيد البشرية بالفعل.

هناك خمس قضايا رئيسية تحدد الحد الفاصل الذي نواجهه حالياً، وهي كما يلي:

أولاً: يوجد اليوم في عالمنا ست قوى نووية على الأقل وهي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي والصين والهند وفرنسا والمملكة المتحدة، ومن المحتمل وجود ست قوى أخرى على الأقل خلال عقد واحد من الزمان ، ومن بينها نجد العراق وليبيا وباكستان وجنوب أفريقيا*، وعلى قدر ما كان الأمر مخيفاً فإن ميزان الرعب بين القوتين العظميين قد حافظ على الاستقرار في العالم. ولكن ومع امتلاك بلاد أخرى ذات مصالح سياسية شديدة التباين للأسلحة النووية، فإن الخطر أن تقدم واحدة منها أو أكثر على استخدام تلك القوة يزداد، والأكثر رعباً هو أن تسقط مواد نووية في يد إرهابيين يمكن أن يستخدموها للابتزاز.

* بالإضافة إلى ما يقال عن كل من إيران وكوريا الشمالية وعدد من الدول الأخرى.

(المترجم)

ثانياً: قد يؤدي استخدامنا الراهن للبيئة إلى دمارنا في النهاية. فنحن إن مضيئنا على طريقنا الحالي فإن السؤال لن يكون فى الواقع عما إذا كان الدمار سيقع ولكنه سيكون عن توقيته؛ إذ تشكل الأمطار الحمضية Acid rain وتدمير الغابات Deforestation وتآكل الأوزون Ozone depletion وارتفاع حرارة الكون علامات واضحة على أننا نسيء استخدام الموارد الموجودة على كوكب الأرض ونستفدها. ويدور النقاش بين علماء الاقتصاد حول إمكانية أو عدم إمكانية إيجاد بدائل للموارد التي نفتقدها، ورغم أهمية هذه المناقشات إلا أن المقولة المهمة فيها تدور حول حقيقة كون كل الموارد محدودة فى النهاية. والسؤال الآن هو متى تأتي هذه النهاية؟

يعتقد البعض أن الموارد المهمة الأساسية ستستنفد خلال جيل واحد أو جيلين، بينما يعتقد آخرون أنه قد يكون فى إمكاننا أن نواصل استبدال مصدر الطاقة بأخر حتى احتراق الشمس بعد بليونى سنة من الآن. وبالرغم من أن قلقى يزداد إذا كان هناك تأكيد بأننا سنستهلك كل مواردنا الرئيسية خلال جيل، إلا أن التوقيت ليس هو القضية ولكن السؤال المهم هو كيف ندرك نحن الآن علاقتنا مع الطبيعة؟ وهل نحن هنا على الأرض لاستغلالها واستنفاد كل ما عليها؟ أو إننا موجودون لنعمل على إيجاد توازن مع بقية المخلوقات ولنعيش أمناء أو حراساً وخلفاء Stewards قائمين على رعاية الإمكانيات التي تمنحها الأرض لنا دون أن نستفدها أو ندمرها؟

ثالثًا: نحن نلهو بالقنبلة الموقوتة التي تتعلق بالارتفاع الزائد في النمو السكاني في البلاد الأقل نمواً، فحين يزيد النمو السكاني عن النمو الاقتصادي يصبح الناس أكثر فقراً ، ويعد مستوى المعيشة في معظم بلدان أفريقيا وكثير من بلدان جنوب شرقي آسيا غير مقبول بالمرّة، وذلك تحت أي معيار، مع العلم بأنه لم يتم اجراز أي تقدم مادي ملموس بالنسبة لهذا الوضع. هذا ويعد متوسط دخل الفرد في كل البلدان الأفريقية جنوب الصحراء أقل تقريباً مما كان عليه وقت حصولها على الاستقلال السياسي منذ حوالي ثلاثين عاماً، وفي مثل هذه الظروف فإن خطر الاضطراب السياسي والاجتماعي يكون من الأمور ذات الاحتمالات الكبيرة.

رابعاً: يعاني النظام الاقتصادي والمالي العالمي من حالة اضطراب، كما تخيم على العالم وبشدة مشكلات ديون البلدان الفقيرة والغنية على حد سواء. وتعد الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل مثالين واضحين على ذلك، وما زال الوضع فيهما أبعد ما يكون عن الحل. ولكن على الرغم من أهمية هذا الوضع فهو أقل تهديداً من الأخطار النووية والبيئية التي شرحتها من قبل. وأعتقد أولاً أنه مازال بالإمكان اتخاذ سياسات حكومية لإنقاذ الوضع، وستنجح في الأغلب إذا ما قمنا باتخاذها. ثم ثانياً أعتقد أنه بمعدل الدخل العالمي للفرد والذي يصل إلى أربعة آلاف دولار في السنة فإننا نستطيع أن نقول إن الإنسان قام بحل المشكلة الاقتصادية الأساسية،

وإن التحدى الباقي يتعلق بكيفية التوزيع، وأعتقد أن احتمال أن يواجه بعضنا انحداراً فى مستوى المعيشة لا يشكل هلاكاً للبشرية ولكن كارثة البيئة والأسلحة النووية هى التى يمكن أن تشكل خطراً يودى إلى هلاك البشرية. وبالرغم من ذلك فيجب علينا ألا نقلل من حقيقة خصائص النظام العالمى والمالى وأهمية العلاقة بين المتغيرات الاقتصادية والمالية؛ إذ ليس بإمكان أى حكومة أن تدير اقتصادها دون اعتبار للآخرين أو بمعزل عنهم ، وقد يودى تردد المستثمرين اليابانيين والألمان إزاء تمويل العجز فى ميزان المدفوعات إلى خلق حالة من الفوضى تسود الاقتصاد الأمريكى ، وكذلك ستكون لها آثار مختلفة ومتفاوتة فى جميع أنحاء العالم. وبالطبع من الواضح أن أى اضطراب فى أى نظام مالى ستكون له نتائج واقعية، وقد تصل إلى مرحلة خطيرة عندما ينتج عنها أو يواكبها أى نوع من البطالة والتضخم.

خامساً: هناك خوف من أن تصبح مؤسساتنا الوطنية والدولية عاجزة عن متابعة الإيقاع فى التغيير. فى الولايات المتحدة الأمريكية فشل الرئيس الأمريكى والكونجرس - بالرغم من العديد من المحاولات - فى خفض أو إحداث زيادة فى الضرائب بما يكفى لحل مشكلات الميزانية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى عدد من الدول الأوروبية نجد أن عدد الأحزاب السياسية قد تضاعف بحيث لم يعد من الممكن تشكيل حكومة

أغلبية، ولعل كلاً من الدانمارك وإيطاليا وهولندا أفضل مثال على ذلك. وإذا كنا فخورين بالموازنات والمراجعات التي تقوم بها النظم الديمقراطية إلا أننا يجب أن نعترف أنها في الغالب تؤدي إلى ورطة.

ولقد ظهرت في الوقت نفسه وسائل الإعلام التي ربما تعتبر أقوى المؤسسات على الإطلاق، ولكنها لا تخضع إلى أي مراجعات أو توازنات. وربما يكون تركيز وسائل الإعلام على المشكلات الآنية والخطيرة يحول دون الوصول إلى الفهم الشعبي الأفضل للمخاطر الحقيقية التي تواجه البشرية. وفي واقع الأمر فإنه بدلاً من مساهمة وسائل الإعلام في جذب الانتباه إلى القضايا المعقدة، إذ إنها تقوم بتبسيطها وبالتالي جعلها أمراً تافهاً. فنجد معلقى التلفزيون يطالبون بتخفيض فوري في التسليح بالرغم من أن هذا الهدف سيستغرق أعواماً. وفي الوقت نفسه إذا ما جاءنا صيف بارد لعدة أعوام فإن وسائل الإعلام تفقد اهتمامها بمشكلة الارتفاع في حرارة الكون التي ستستمر تواجهنا بلا هوادة، ونتيجة لذلك يمكن أن تتوقف الجهود السياسية التي تحدث على مواجهة هذه المشكلة.

إلى أين تقودنا هذه القضايا؟

لقد بلغ الثراء المادي في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا آفاقاً لم يكن للإنسان أن يحلم بها منذ جيل واحد فقط، ولكن لم يتبع هذا الثراء أي

سعادة؛ إذ لا توجد بالضرورة علاقة وثيقة بين التقدم المادى والسعادة، رغم أن هناك حدا أدنى للتقدم المادى لا يمكن أن توجد السعادة بدونه، ويتمثل هذا الحد الأدنى فى عدة ظروف منها أن يصل العمر المتوقع للإنسان إلى ما يقرب من الستين عاما (كما هو الحال فى الصين) وأن تبلغ نسبة الوفيات فى الرضع إلى ثلاثين لكل ألف من المواليد الأحياء، وأن يتم القضاء على الأمية بسرعة، وبلغة الدولار فإن كل هذه الأمور يمكن أن تحدث عندما يصل متوسط دخل الفرد إلى حوالى ألف دولار فى السنة. وفوق هذا الحد الأدنى سالف الذكر يبدو أن العلاقة بين مستوى الدخل والسعادة علاقة طفيفة.

وقد أجرت مؤسسة جالوب استطلاعا دوليا فى عام ١٩٨٤ أشارت نتائجها إلى أن الناس فى البلدان الغنية أميل لأن يكونوا سعداء من أقرانهم فى البلدان الفقيرة ، كما بين الاستطلاع أيضا أن معظم الناس يعتبرون أن دخلا ضعف دخلهم الحالى مهما كان دخلهم يعتبر الدخل المثالى لهم.

ونجد على مدى الجيل الأخير أن سكان أوروبا قد ضاعفوا دخلهم، كما أنهم قد لبوا كل احتياجاتهم وأكثر، ولكن ذاكرة البشر ضعيفة، والناس منشغلون الآن بالإحباط الناتج عن البطء النسبى فى النمو الإقتصادى فى السنوات الأخيرة.

وتعد التجربة الإسكندنافية تجربة مثيرة فى هذا الصدد، فلقد انطلقت التنمية المادية الإسكندنافية فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، ولقد

شكلت الصحوة الدينية التي حدثت في ذلك الوقت أحد العوامل المهمة والمساعدة في التنمية المادية ، إذ بدأ الناس العاديون يتعلمون قراءة الإنجيل مما أدى إلى زيادة عدد القادرين على القراءة والكتابة وبالتالي إلى الارتفاع في الإنتاجية.

ولكن مع بروز الحركات العالمية بدأت الغايات الجمالية والثقافية والدينية تتراجع بينما أخذت الغايات المادية تحتل مركز الصدارة؛ فلقد بدأت الحركات العالمية، ومنذ أيام الكساد، تركز غاياتها في الوصول إلى ساعات عمل أقل وظروف عمل أفضل والحصول على أجور أعلى، وهي تطلعات مادية كلها بالطبع، ولقد تم الوصول إليها وأكثر منها مع حلول عام ١٩٧٠ ، إلا أنه تبع ذلك إحساس بالفراغ؛ حيث أصبح معظم الناس وخاصة الشباب يجدون صعوبة في أن يجدوا معنى لحياتهم. وربما كانت الثقافة الغربية متأثرة بنتائج التكنولوجيا الحديثة بشكل مبالغ فيه، وميالة إلى حد كبير إلى تمجيد العلم والتكنولوجيا، وترى أنهما الحقيقة الوحيدة الموجودة. ولكنني أعتقد أن مثل هذا الإيمان المادي البحث يهدد بقاءنا. وسحب أن يكون لدينا وعى شعورى بمدى جهلنا بالوضع الذي نحن فيه وكذلك بالطريق الذي نتجه إليه.

كما يجب أن ننتبه إلى أننا قد جمدنا أنفسنا في داخل نموذج علمي واحد Scientific paradigm وهو الأمر الذي قد يؤدي إلى إلغاء احتمال وجود نماذج أخرى مختلفة جذرياً عنه، وبالطبع لا يمكن لأي عالم

حقيقى أن يفعل ذلك، كما يجب أن نعى ضرورة المضى قدما فى الجهود العلمية المبذولة، ولكن بطريقة العلماء الحقيقين أى من خلال العقول المتفتحة والمتواضعة.

منع الكارثة وحماية المستقبل:

ما الذى يمكننا أن نقوم به بالنظر إلى المشكلات التى تواجهنا؟

قد يقول الكثيرون بأن إصدار بعض القرارات السياسية والاقتصادية الواعية إلى جانب المزيد من التقدم العلمى سىتيحان للجنس البشرى أن يصل إلى حد الرفاهية والازدهار. ولكن يبدو أنه من الحكمة إدخال بعض التغييرات فى سلوك الحكومات والمؤسسات والأفراد، بحيث تكون هذه التغييرات من النوع الذى لا يعوقنا عن الوصول إلى مزيد من التقدم، وبالتالي يمكن أن يساعدنا على تجنب غروب الآلهة، حيث إنه لو حدث ذلك فإنه سيقودنا لا محالة إلى حرب نووية وإلى دمار بيئى محقق.

ما المعايير الواجب الاسترشاد بها عند تحديد التغييرات اللازمة؟

يجب علينا فى الأساس أن نعزز القيم التى يزداد الاتفاق حولها يوما

بعد الآخر ونحافظ عليها، وتتمثل هذه القيم فيما يلى:

أولاً: يجب تأمين الاحتياجات الأساسية اللازمة للبقاء المادى.

ثانياً: يجب أن يعمل المجتمع بطريقة تكفل للناس الحفاظ على احترامهم

لأنفسهم وشعورهم بالقيم، ويجب أن نعترف أن هذا هو الأمر الذى

فشل فيه المجتمع الغربى الحديث، وخاصة فى بلادى إسكندنافيا حيث يشعر كثيرون أنهم عديمو الفائدة ولا يشكلون أهمية فى تقدم المجتمع.

ثالثا: يجب حماية مجال الحرية الفردية المصحوبة بالمسئولية وتوسيع مجال هذه الحرية.

ما الأفعال اللازمة للحفاظ على هذه القيم الأساسية وتعزيزها؟
دور الحكومات الغنية والفقيرة:

من أولى مهام البلدان المتقدمة أن تضمن أن الإنسانية لن تدمر نفسها فى محرقة نووية Nuclear-holocaust وهذا يعنى فى النهاية أنه يجب إلغاء الأسلحة النووية، وما زال حتى الآن الطريق طويل ومتعرج أمام محادثات الحد من الأسلحة الإستراتيجية، ولكن - مع ما حدث عام ١٩٨٩- فإن الأمر يبعث على الرضا، ولذلك يجب أن ننوه بأن القوتين العظيمين قد اتخذتا الخطوات المهمة الأولى على هذا الطريق. ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أنه طالما بقيت أسلحة نووية موجودة على الأرض فإن بقاءنا مهدد، إما نتيجة للصراع بين القوى العظمى وإما من خلال استخدام الإرهابيين لهذه الأسلحة. ويتم حاليا إنفاق ما يوازي عشرين ضعفا على تدمير أنفسنا بما فى ذلك ما ننفقه على الأسلحة التقليدية، وذلك بالمقارنة بما ينفق لاحتواء وتبئى التقدم الاقتصادى

والاجتماعى فى البلاد النامية. وبالطبع فإن إنفاق قدر أكبر من الدولارات فى مجال التنمية قد يؤدى إلى تعزيز الأمن بصورة أفضل من تلك التى يحققها إنفاق هذه الدولارات على السلاح.

أما ثانية مهام البلدان الغنية فتتعلق بزيادة كفاءتها فى استخدام الموارد النادرة. ويعتبر القيد النهائى على استخدام الموارد هو قدرات الأرض الموجودة؛ إذ يجب ألا يتجاوز استهلاك الفرد من الموارد المتاحة المستوى الذى تستطيع الأرض تقديمه بشكل ثابت لكل سكانها. ويلاحظ أنه فى الوقت الحالى نجد أن نسبة استخدام الأفراد للموارد المتاحة فى البلدان الصناعية لا يمكن توفيره أو استمراره بشكل ثابت لكل سكان الأرض. وبالرغم من صعوبة توفر الدقة اللازمة لتقدير القدرات الموجودة فى الكون لإطعام السكان الموجودين عليه توجد تقديرات قامت بها مؤخرا اللجنة الدولية للبيئة والتنمية International commission on development and environment وهذه التقديرات توضح أنه فى مقدور الكون أن يطعم حوالى ٥٠٠ مليون شخص فقط إلى ما لا نهاية، وذلك باستخدام مستوى الدخل والتقدم التكنولوجى الموجود حالياً فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن إذا استخدمت هذه الموارد بحكمة أكبر كما يحدث فى أوروبا واليابان فقد يصبح الكون قادراً على إطعام بليون شخص إلى ما لا نهاية. ويقدر الديمجرافيون (علماء السكان) Demographers أنه إذا ما استمرت الاتجاهات الحالية فى النمو

السكاني، فإن سكان العالم والذين يقدرّون الآن بخمسة بلايين* سيستقر عددهم خلال القرن الحادي والعشرون ليصبحوا ما بين تسعة واثني عشر بليون شخص. وفيما يتعلق بالاستخدام الكفء للموارد، فإنه يجب على البلدان الغنية أن تتخذ ثلاث خطوات، تتمثل في ضرورة المجاهدة بحزم من أجل الاستخدام الأفضل للموارد المتاحة، و تجنب تلويث الموارد التي لا يمكن إعادتها إلى ما كانت عليه مثل الهواء والماء والتربة الصالحة للزراعة، واتخاذ إجراءات فورية وحاسمة لمساعدة البلاد النامية على التنمية الاقتصادية.

وبالرغم من أن المسؤولية الرئيسية عن التنمية تقع على عاتق البلاد النامية نفسها إلا إنها لا تستطيع القيام بها وحدها. فالبلاد النامية ذات الدخل المنخفضة (تلك التي يزيد فيها الدخل السنوي للفرد على خمسمائة دولار) من المحتمل أن تصل إلى مستويات معيشية مقبولة إذا ما استمرت إمكانية إتاحة الفرصة لها للاستثمار التجاري والتصدير إلى أسواق البلاد الغنية. أما البلاد النامية ذات الدخل شديدة الانخفاض (تلك التي يقل فيها الدخل السنوي للفرد عن خمسمائة دولار وهي معظم بلاد صحراء جنوب أفريقيا وأكثر البلدان في آسيا فقرا) فستحتاج هذه البلاد إلى مساعدات مالية مستمرة بشروط ميسرة ولعدة سنوات قادمة.

* تشير كل التوقعات إلى أن عدد السكان في العالم سيصل إلى حوالي ٨,٣ بلايين نسمة مع حلول عام ٢٠٢٥. (المترجم)

هذا وتوجد دوافع أخلاقية قوية لزيادة هذه المساعدات وذلك عن طريق خفض متوسط استهلاك الفرد وتحويل هذه المدخرات إلى الفقراء، ومن الممكن أن يأتي هذا الانخفاض في الاستهلاك بطريقة طواعية، أو أن يأخذ شكل ضريبة عالمية. وبينما يقول الكثيرون إن فرصة فرض ضريبة عالمية أمر غير ممكن، فإن الاعتقاد نفسه بعدم الإمكانية كان سائدا في القرن التاسع عشر بالنسبة لفرض ضرائب على الدخل، وهي الآن - كما نعرف - أمر متعارف عليه في كل مكان في العالم، وأعتقد أن المساعدات الموجهة للتنمية تعتبر بشكل ما نوعاً من الضريبة العالمية. وذلك على الرغم من أن مقدارها بسيط جداً، إذ يصل معدلها إلى ما يوازي ٠,٣٦٪ من الدخل القومي للبلدان الغنية، وذلك على عكس النسبة التي خصصتها الولايات المتحدة الأمريكية لتمويل مشروع مارشال Marshal Plan عام ١٩٤٧ والتي كانت تبلغ ٢,٥٪ من الدخل القومي في ذلك الوقت. والسؤال الآن هو هل يعد إغراقاً في الخيال أن نفكر في أن المعدل الذي حققته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ قابل للتحقيق اليوم؟ وخاصة بالنظر إلى انخفاض التوتر الدولي الناتج عما يحدث في بلاد أوروبا الشرقية؟ إن ألمانيا الغربية ستتجاوز هذه المعدلات في معونتها لألمانيا الشرقية*. ولذلك أيضاً نتساءل: لماذا لا يبذل على مستوى العالم جهد مالي مماثل؟

* من المعروف أن ألمانيا الشرقية والغربية أصبحتا دولة واحدة بعد هدم سور برلين.
(المترجم)

وبصرف النظر عما تقوم به البلاد الغنية فالحقيقة باقية، ومفادها أن الترابط والاعتماد المتبادل Interdependence بين بلاد العالم أخذ في التزايد؛ حيث يرتبط العالم مع بعضه الآن من خلال وسائل الإعلام الحديثة والتجارة التي تربطه برباط أوثق مما حدث في أي وقت مضى. فعلى سبيل المثال إذا أدى سوء المحصول في الاتحاد السوفيتي إلى أن تبيع الولايات المتحدة كمية أكبر من الحبوب للسوفييت، فإن سعر الغذاء سيزيد على مستوى العالم كله، ومن المحتمل أن يعاني عامل غير مالك للأرض في بنجلاديش جوعاً أشد مما عرفه من قبل.

وفيما يتعلق بالبلاد النامية يجب أن يظل شغلها الشاغل هو تلبية الاحتياجات الأساسية للسكان فيها. فمن غير المحتمل أن تتحقق الحرية واحترام الذات طالما لم تتم تلبية الاحتياجات الأساسية. ولقد مضت في هذا الطريق العديد من البلاد النامية في أمريكا اللاتينية وشرق آسيا حيث حققت خطوات طيبة نحو الوصول إلى هدف الوفاء بالاحتياجات الأساسية لسكانها، ولكن مازالت معظم البلاد في صحراء جنوب أفريقيا وبلاد جنوب آسيا بعيدة عن تحقيق هذا الهدف.

ويمكن تحقيق الوصول إلى هذا الهدف بسهولة إذا ما تم تخفيض معدلات النمو السكاني، وعلى ذلك فإن تخفيض المعدلات في النمو السكاني له أهمية خاصة وحيوية بالنسبة للبلاد النامية. فبينما يعتبر الكثير من المتزوجين في البلاد الغنية أن تكوين أسر صغيرة أمر في مصلحتهم، نجد أن الكثير من المتزوجين في البلاد النامية يشعرون أن إنجاب عدد

كبير من الأطفال سيوفر لهم الاحتياجات الحالية من العمالة للعمل فى المزارع بالإضافة إلى تحقيق الأمان فى المستقبل، ولذلك فإنه يجب على السياسات الحكومية أن تعنى بضرورة تخفيض وإبطاء معدلات النمو فى السكان.

ورغم ضرورة إحداث التنمية الاقتصادية فى البلاد النامية على وجه السرعة فإن القضايا المتعلقة بحماية البيئة يجب أن تلقى هى الأخرى اهتماماً مماثلاً. ولكن حيث إن البلاد الغنية أكثر البلاد مساهمة فى إحداث التلوث فى العالم فإنه تعتبر مسئولة كلية عن منع تدهور البيئة وإيادة المخلوقات.

دور البنك الدولى:

يعتبر البنك الدولى واحدا من المؤسسات العديدة التى تتعامل مع المشكلات المطروحة فى هذا الصدد. وتحدد مواد الاتفاق الخاصة بالبنك حدود تعامله فى نطاق قضايا العالم الاقتصادية، وعلى ذلك فهو لا يستطيع المشاركة فى الجدل السياسى المتعلق بالأسلحة النووية أو ضعف المؤسسات الديمقراطية*، ولكنه يستطيع أن يقوم، بل إنه يقوم بالفعل

* من المعروف أن الاتجاهات الجديدة للبنك تتمثل فى تشجيع التعامل مع مؤسسات المجتمع المدنى بكل أشكالها. (المترجم)

بدور حيوى فى تخفيض النمو السكانى فى البلاد النامية، وكذلك بالنسبة للقضايا المتعلقة بحماية البيئة من الاستغلال المفرط. وبينما قد يكون أمرًا مرغوبًا فيه أن يقوم البنك الدولى أيضًا باتخاذ موقف فعال من القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان فإن الالتزام الدقيق بالتعامل مع المبادئ الاقتصادية كان لصالح البنك والمجتمع الدولى ككل. ويعتبر أمرًا مخجلًا أن تقوم البلاد الغنية الأعضاء فى البنك الدولى بإرغامه على القيام بانتهاك مبادئه وذلك عندما تقرر حرمان الصين* من الحصول على القروض من البنك الدولى.

ويعتقد البنك الدولى أن معدلات النمو السكانى المرتفعة وخاصة فى بلاد أفريقيا تمثل عقبة رئيسية فى سبيل الوفاء بالاحتياجات الرئيسية للسكان فى أشد البلاد فقرًا. ولذلك فإن البنك يلتزم بتأمين نمو طويل الأمد لمعدل دخل الفرد بحيث ينتشل تلك البلاد من حالة الفقر التى تعيشها. ولكن وفى الوقت نفسه يشكل وعى الكثير من السكان فى البلاد التى يتعامل معها البنك الدولى معتقدات مختلفة مثل الديانة الإسلامية والعقيدة الكاثوليكية، ولذلك يجب على البنك الدولى أن يكون حذرًا وصبورًا فى تعامله مع قضية السكان، هذا ولقد كانت السياسة السكانية التى تبنتها

* تغيرت أوضاع تعامل البنك مع بعض الدول ومنها الصين بحيث أصبح يعطى قروضا للصين مماثلة لبقية دول العالم. (المترجم)

الصين من أنجح السياسات في العالم، وذلك بتركيزها الفوري على موانع الحمل وتطبيق الإجهاض وبرامج التعليم الخاصة للبنات والنساء، وذلك بالرغم من أنها كانت مثيرة للجدل ومؤلمة. ولعل ذلك يعطينا الفرصة لفهم أن الألم القصير الأمد غالبا ما يكون ضروريا لتحقيق المكاسب طويلة الأجل.

ولذلك فإنه يجب على البنك الدولي ، ومن خلال قروض التعديل الهيكلي للقروض وكذلك القروض المباشرة لبرامج الإسكان، أن يمارس بعض الضغط على الحكومات لتضع لنفسها أهدافا فيما يتعلق بمعدلات النمو السكاني تتماثل مع ما تبناه الصينيون. وبالطبع من الممكن أن تكون الوسائل المستخدمة لتخفيض برامج السكان أقل في شدتها من تلك التي استخدمت في الصين، وأن تركز بقوة أكبر على برامج تعليم البنات والنساء؛ إذ إنه بدون إحداث تخفيض هائل في معدلات النمو الحالية للسكان فسيستمر البؤس الموجود حاليا في أشد البلاد فقرا.

ولقد بدأت مشاركة البنك الدولي في المناقشات والمحاورات حول البيئة في فترة متأخرة نسبيا، ولذلك فإن عليه أن يتحمل نصيبه من اللوم فيما يتعلق بالأخطار السابقة. ولكن - في الوقت الحالي - يتجه البنك الدولي للمشاركة في أكبر قضايا البيئة، ولديه الخبراء الفنيون في هذه القضايا سواء في مقره الرئيسي أو في مكاتبه الإقليمية. ولقد استحدث

البنك إدارة خاصة للبيئة وتتلخص مهمة هذه الإدارة في تقديم المساندة الفكرية على مستوى واضعى السياسات، كما تترأيد مساندة البنك الدولى فى دعم المنظمات غير الحكومية التى تتعامل بنشاط مع القضايا البيئية.

وبالرغم من كل ذلك فستظل فعالية البنك فى مجال حل المشاكل البيئية محدودة وكذلك تأثيره فى هذا المجال، ويرجع ذلك إلى أن البلاد الغنية هى من أكثر البلاد تلويثا للبيئة، وليس للبنك أى تأثير على سياستها. وبينما يمكن مثلا الحد من عمليات التصحر وإزالة الغابات فى البلاد النامية عن طريق قيام البنك بتقديم المساعدات، إلا أن ظواهر أخرى تعتبر مدمرة مثل ظاهرة الأمطار الحمضية Acid Rain وتأثير الـ Greenhouse effect على استهلاك الوقود الحفري Fossil وتآكل طبقة الأوزون، وستستمر هذه الظواهر ما لم تتخذ البلاد إجراءات حازمة لمعالجتها. وقد تم الوصول إلى معدلات نمو سكانى أقل فى بيئة محسنة نتيجة للحوار حول السياسات وتقديم المساعدات الفنية والمالية، وذلك إذا ما وافق كل من البنك الدولى والبلاد المقترضة على اتخاذ سياسات ملائمة. ولكن لا يمكن الوصول إلى هذه الغايات إذا عجز الفقراء عن فهم الرسالة بسبب انتشار الأمية، ولذلك فإن التعليم يعتبر شرطا ضروريا للتغيير. ولقد قضيت ثمانية أعوام من التسعة عشر عاما التى عملت خلالها فى البنك الدولى فى مشروعات تتعلق بالتعليم فى أفريقيا وشرق

آسيا. والشعور الذي خرجت به من هذه التجربة بخصوص تحديث في أفريقيا يتمثل في "الضالة الشديدة والتأخر الشديد"، حيث تتزايد الأعداد الإجمالية للآميين بالرغم من الزيادة في نسب الملتحقين بالمدراس الابتدائية. فالحكومات الإفريقية لا تستطيع ماديا أن تواجه مسؤوليتها تجاه الأعداد المستمرة في الزيادة من الأطفال. وحين لا يتلقى الأطفال أى تعليم فهذا يعنى أن معدلات النمو السكانى ستبقى مرتفعة في الجيل القادم. وعلى ذلك فإن توفير التمويل اللازم لنظم التعليم الأفريقية يعتبر أمرا في صالح الجميع، وذلك حتى يمكن كسر هذه الحلقة الجهنمية وضمان التعليم لجميع الأطفال.

ولقد تم كسر هذه الحلقة في شرق آسيا وتميل الآن معدلات النمو السكانى إلى الانخفاض، ويرجع ذلك جزئيا إلى توفير تعليم أفضل للبنات. ففي إندونيسيا مثلا حيث زادت نسبة التحاق البنات بالمدراس الابتدائية من ٦٥٪ عام ١٩٦٥ لتشمل كل البنات في أواخر الثمانينيات نجد أن النمو السكانى انخفض من حوالى ٣٪ إلى ١,٧٪ على مدى الفترة الزمنية نفسها. وكذلك يحقق التعليم وعيا بيئيا أفضل وخاصة في الصين.

قوة العمل الفردى:

في النهاية نحن يصدد إما إقامة حضارة إنسانية وإما دفنها، وإن كانت هذه مقولة قوية إلا إن الوضع الحالى حيث توجد دول منفصلة

وأديان منفصلة وعقائد متفرقة يجعل الظروف غير مواتية لمتطلبات التنمية المستدامة.

كما أن الحكومات غير قادرة هي الأخرى على حل المشكلات الاقتصادية التي تؤرقها والتي تزداد حدتها. هذا ولن تتمكن أى سياسة اقتصادية من أن تحقق نجاحا طالما استمرت الجماعات ذات المصالح فى المقاومة ورفض تقديم أى تضحية كحل للمشكلات التى تؤثر على الجميع. إن الأمر يتطلب فى الغالب إحداث تغييرات هائلة فى أساليب الحياة والعادات والاتجاهات التى ينتهجها عدد ممن تتوفر لديهم الشجاعة والقوة؛ إذ يمكن لمجمل خيارات الأفراد وأعمالهم أن يشكل قوة دافعة لإحداث التغيير.

وليس من المحتمل أن يودى التركيز الحالى الذى ينصب على تحقيق التقدم إلى خلق هذا النوع من الأفراد الذى نحتاج إليه، وكذلك الإصرار على أن القول بأن التقدم المادى الفردى هو الطريق إلى السعادة سيؤدى إلى الفشل حتما، وذلك لأن الحكومات الغربية لم تعد قادرة على ضمان مثل هذا التقدم، ولأن السعادة لا تأتى بالضرورة نتيجة للرفاهية المادية. إن التغيير فى أسلوب الحياة ليس أمرا ضروريا فقط، ولكنه أيضا مطلوب لمنفعة الفرد. والسؤال الآن هو: هل يمكن لهذا التغيير أن يحدث؟ ومن أين سيأتى؟

الإجابة على هذه الأسئلة تكمن ربما في الإيمان بالدين والإيمان
بقدره الفرد على مواجهة المشكلات كلما ظهرت. ولقد توقف عدد كبير
من الأمريكيين عن التدخين خلال السنوات الأخيرة وتحولوا إلى نظم
غذائية صحية أكثر من تلك التي اعتادوا عليها، كما بدأوا في ممارسة
الرياضة بشكل منتظم، وتدل هذه الأمثلة - على الرغم من أنها بسيطة -
على أن الأفراد قادرون على تغيير أسلوب حياتهم، وتنشأ لديهم الرغبة
في ذلك حينما يقتنعون بأن ذلك في مصلحتهم.

إن إحداث تغيير جذري في أسلوب الحياة بصورة أكبر من ذلك
يمكن أن يؤدي إلى إحياء ممارسة عادة الصوم القديمة. فهناك ملايين من
البشر في البلاد الغنية يرغبون في تخفيض أوزانهم، ولذلك فبدلاً من
ضياع الأموال على هوس النظم الغذائية من الممكن أن نحذو حذو أجدادنا
الذين كانوا يتوقفون عن تناول الطعام بعد أخذ كفايتهم منه.

وإذا كانت الجهود الفردية التي تضع الاستهلاك عند مستوى قابل
للثبات على أسس عالمية جهوداً محمودة وصحية، فإن الفوائد المرجوة
من هذه الجهود يجب ألا تكون السبب الرئيسي في القيام بها، حيث يوجد
خطر نرجسى من انشغال الفرد بنفسه وبالجهود التي يبذلها لتحسين نفسه.
فالدافع هو الوصول إلى مدخرات مادية يمكن استخدامها في عمل يفيد
المجتمع الدولي. ولذلك فإن الجهود الفردية يجب أن تستغل من أجل

العمل الجماعي ، وفي النهاية من أجل العمل السياسي. ويمكن للجيران الصوم معا على أن يهبوا المال الذي كانوا سينفقونه على الطعام لوكالة خاصة ذات برامج للمساعدة ومخصصة للبلدان النامية. وحين يرتفع مستوى وعيهم فسيكون بإمكانهم الضغط على الساسة المحليين لزيادة المعونة الاقتصادية للبلاد النامية. كذلك يمكن أن يعبر الناس عن اهتمامهم بالبيئة من خلال قيامهم بعمليات تنظيف الحي الذي يسكنون فيه، وبذلك فإنهم سيدركون كم القمامة التي تخرجها المنازل، ومن ثم سيدركون كيف أن بلادهم تلوث الدنيا كلها. ولربما يمكن أن يؤدي هذا الإدراك إلى أن يقوموا بضغط ما على المستوى السياسي. وأعتقد أن الناس في البلاد الغنية يتمتعون بامتيازات تفوق الخيال، وأكبر خطيئة ألا نكون واعين بما لدينا من امتيازات أو غير قادرين على الاستمتاع بها. ويستطيع الباحثون عن معنى الحياة أن يجدوا بعضا من هذا المعنى عند التركيز على استيعاب المشكلات الهائلة التي يعاني منها الناس في البلاد الفقيرة. ولقد ساهم الشعور الذي كان موجودا في الماضي بأن أبناء الجيران لهم أيضا الحق في الطعام والتعليم ومستوى معيشة أفضل في إحداث تقدم مادي للأمم كثيرة، ولعل الوقت قد حان ليمتد الشعور بالتكافل ليشمل العالم كله.

ويعتقد الكثيرون ممن يؤمنون بالمستقبل في الغرب أن مزيدا من التقدم في العالم والتكنولوجيا وخاصة في مجالات الاتصالات سيؤدي في

النهاية إلى حل مشكلاتنا الاقتصادية، وهم يرون أن الإنسان الآلى سوف يقوم بكل الأعمال الميكانيكية، ولكننى لا أعتقد أن ذلك أمر محتمل، إن كنت أمل فى أن تساعدنا تكنولوجيا المعلومات على اكتساب فهم أعمق للمشكلات. ولأن العقول البشرية دائما ما تركز على متغير واحد فى وقت واحد فإننا نميل إلى إرجاع كل مشكلاتنا إلى سبب مفرد، وذلك كما يحدث مثلا فى قضايا التضخم أو الأعباء الضريبية أو الشيوعية. ولكن عندما يشيع استخدام الكمبيوتر بطريقة أكبر فقد تساعدنا قدرته على تحليل التأثير الفورى لعدة متغيرات فى الوقت نفسه؛ مما يؤدي إلى تكوين آراء أقل تبسيطا. ويشهد المجتمع الحديث انقساماً بين الصفوة الذين يفهمون التقدم ويشجعونه وبين العامة الذين يتزايد شعورهم بالإحباط والارتباك والتخلف عن الباقيين. ولكن إذا ما أصبحت التكنولوجيا متاحة على نطاق واسع فالأمل معقود أنها يمكن أن تضيق هذه الفجوة وتجعل المجتمع الحديث أكثر قدرة على الاستمرار.

كذلك فإن الأفراد فى البلاد النامية عليهم مسئوليات ولديهم فرص للتأثير على مصير الإنسانية. وعلى القادة المتعلمين أن يقرروا كيف يريدون للمستقبل أن يكون. فهناك اقتراحات بخصوص تأسيس نظام اقتصادى جديد يشتمل على خطط لتحقيق الاستقرار فى أسعار السلع وإنشاء بنك مركزى دولى، ولكن هذه الاقتراحات تفتقر إلى حسن الإعداد، كما أنها لم تعالج إلا المشكلات الاقتصادية فقط.

ويجب ألا تكون القضايا الاقتصادية محور الانشغال الوحيد لقادة البلاد النامية، حيث يمكن أن تتحول الأحلام الاقتصادية إلى كوابيس بسهولة، ولا أعتقد أنه من المحتمل أن تلحق البلاد النامية بالبلاد الغنية اقتصاديا. كما أن هذا أمر غير مرغوب فيه أيضا. أما الأمر المرغوب فيه بل والضروري فهو تحقيق بعض الضمانات لتلبية الحاجات المادية الأساسية للجميع. وبمجرد الوفاء بتلبية هذه الاحتياجات الأساسية التي تتضمن استمرار البشرية وبقائها، فإن الاحتياجات الروحية يجب أن تكون الشغل الشاغل لعقول القادة في البلاد النامية والمتقدمة على السواء.

وتستطيع البلاد النامية المساهمة بالكثير من الأشياء المختلفة والمتنوعة للمستقبل. فمن بين الشروط الضرورية لإحداث التطور وجود ثقافات ولغات متنوعة. وليس من المحتمل أن تصبح الثقافة الصناعية الإنجليزية التي تسيطر الآن على كل العالم أفضل نموذج للحفاظ على الإنسان وبقاء الجنس البشري كله. فبينما يملك التصنيع القدرة على توفير ظروف وجود مادي لائق لكل سكان العالم ولأول مرة في التاريخ، فمن المشكوك فيه أنه يستطيع أن يعطي أكثر من ذلك. حيث إن نجاحه قائم على تصور مماثل للتصور الآلي النيوتوني للعالم، ورغم أن هذا التصور للعالم مفيد من حيث إمكانية تطبيقه واستخدامه، فإنه من المحتمل أن يكون ضارا بالعالم فيما يخص بقاءه واستمراره؛ فكل علوم الفيزياء

والأحياء والفلسفة الحديثة تميل كلها في اتجاه المعتقدات القديمة فيما يتعلق بالتناسق والتناغم كمبدأ للاسترشاد به في الكون، حيث إننا إذا لم نتعلم أن نحيا في تناسق وتناغم مع بعضنا البعض فإن الفناء سيكون مصيرنا المحتوم.

ونتساءل الآن هل الموقف الذي تواجهه البشرية يعد أخطر ما واجهته من مواقف على الإطلاق؟ لقد بدأ جرميا Jeremiah في الاستغاثة منذ ٢٥٠٠ سنة وما زالت الدنيا باقية. ولكن ربما تكون الأخطار التي نواجهها الآن أعظم من أى أخطار واجهتها البشرية من قبل. وأعتقد أنه من المحتمل أن يقوم الأفراد بتغيير سلوكهم وسلوك مجتمعاتهم، لا لأن العالم قد يكون مهددا بالخطر، ولكن لأنهم في الحقيقة سيكونون أسعد حالا إذا ما انتهجوا أسلوب حياة لا يركز فقط على إشباع المتطلبات المادية وحدها.

ربما أصاب علماء الاقتصاد الذين يقولون إن المشكلات الراهنة مثل مشكلات البيئة واستنفاد المصادر المتاحة والفجوة بين الأغنياء والفقراء وبين الأمم يمكن أن تحل من خلال إثارة السوق ليعمل بطريقة أفضل، ولكن العالم الذي سينتج عن ذلك لن يكون عالما لطيفا ومبهجا، ربما سيكون أكثر غنى، ولكنه سيكون أكثر ازدحاما و قذارة وأقل تنوعا مما عليه الحال الآن.

ويميل علماء الاقتصاد إلى افتراض أن الناس لا يتغيرون إلا إذا لمسوا تحسنا ماديا لأنفسهم نتيجة لهذا التغيير. إلا إن التاريخ يكذب هذا الافتراض، فالمصلحون الذين كانوا أول من تحدث عن إلغاء العبودية والاستعمار كانوا يعتبرون مثاليين يعيشون في عالم من صنع خيالهم (طوباويين) ومع ذلك فقد تحققت آراؤهم.

وقد ينظر بعض المخلوقات من خارج الأرض إلينا على أننا سرطان يهدد الكوكب، وبلغة أكثر مادية فإن نمونا العددي والتهامنا لكل المصادر المتاحة في العالم يجعلنا نبدو في صورة سرطانية. ولكننا أكثر من ذلك؛ فنحن مخلوقات روحية؛ فلقد ألفنا موسيقى باخ، وأسنا نظريات أينشتاين، وجاء إلينا بوذا ومحمد والمسيح ليبلغونا بمعنى حياتنا وغايتها، وإذا ما اختفينا فسيشفق علينا حتى هؤلاء المراقبون من الخارج. وقد يخشون من عنفنا وفقداننا للبصيرة، ولكن إذا حدث و استطعنا أن نطلق ما لدينا من قوى روحية فإنني أعتقد أنهم سيرحبون بنا لجدارتنا لأن نكون خلفاء يرعون شئون المستقبل.

رؤية مسلم لمجتمع التوازن والعدل

إسماعيل سراج الدين

نشأت في بيئة حضارية متميزة يتمتع أفرادها بجميع أنواع الضمان المادى ويحتل فيها التوافق الاجتماعى مكانة عالية من جانب الآباء. كما تحتل الثقافة وما لها من مضمون حضارى أيضا منزلة مهمة في هذه البيئة التى نشأت وترعرعت فيها. وإضافة إلى هذا المناخ الحضارى والمادى والثقافى فإن مواصلة البحث عن المعرفة كانت تحتل أيضا فى هذه البيئة مكانا مرموقا على أوسع نطاق ممكن، وذلك من أجل الحصول على المعرفة من مصادرها. ولقد كان يسود هذه البيئة التى نشأت فيها مع أختين لى ملمح ثقافى آخر مهم يتعلق باللغة باعتبارها أهم وسيلة للاتصال؛ حيث يستطيع جميع أفراد أسرتى القراءة والاطلاع فى كل أو معظم مصادر المعرفة سواء أكانت أصولها باللغة العربية أم الإنجليزية أم الفرنسية. وبسبب هذه القدرات اللغوية التى يتمتع بها أفراد أسرتى كانت تسود بيننا مناقشات ذات مضمون فكرى قد تأخذ أحيانا أسلوب الحوار والمناظرة تحت إشراف الكبار فى الأسرة، لتأخذ مسارا ثقافيا وحضاريا إيجابيا فى مضمونها وطريقة إجرائها.

وكان مبدأ الدولية* Internationalism السائد في ذلك الوقت متما ومكتملا لما كان لدى أسرتي من جذور عميقة في مصر. كذلك فإن مبادئ حركة التنوير الفرنسية ونظام الحكم الدستوري البريطاني والكلاسيكيات وسارتر كانت كلها أشياء لها مكانتها لدينا، وذلك إلى جانب الفكر الإسلامي وتاريخ العرب والأدب والفن الإسلامي. وفي مرحلة تطور مفاهيمي وتصوراتي عن العالم لم يكن هناك فرق واضح بين مبادئ التسامح والقيم الأخلاقية الدينية وكأنها لا تتميز عن بعضها البعض. أما بيتنا الذي كان مقاما على الطراز المعماري الغربي الحديث، فكان يقدم أفقا مختلفة ولكنها في الوقت نفسه مكتملة لما نشاهده حولنا في مصر، فالأثاث كان يحمل طابع عصر من عصور فرنسا، وتلك لوحات زيتية من ألمانيا، وهذه صور لمناظر الطبيعة في ريف أوروبا بأشجارها وسحبها الكثيفة المتلاطمة، وذلك إلى جانب الأعمال الفنية من الشرق الأقصى. فقد كانت تركيا وإيران تشتركان معا بالنسبة لنا في تشكيل أفاق لعالم بعيد يثير شهيتنا المفتوحة للاستكشاف ورغبتنا في تنويع الجمال.

ولقد اخترت دراسة الهندسة المعمارية وأنا في سن مبكرة سائرا على نفس النهج الذي سار عليه أبي وسبقته إلى أختي. ولقد تحولت من

* "الدولية" مبدأ يدعو إلى التعاون بين الدول وتتلمس الخلافات القومية، ويكون هذا التعاون بوجه خاص في مجالات الاقتصاد والسياسة. (المترجم)

دراسة الهندسة المعمارية إلى دراسة مشكلات المدن، ثم الأقاليم، ثم أخيرا إلى دراسة مشكلات الدول ككل، وكان ذلك كله ينبع دائما من حرصى على تقصى وتتبع القضايا المحيرة والعمل على إيجاد الحلول والوسائل الممكنة لتحسين أوضاعها. فلقد انتقلت من دراسة الهندسة المعمارية إلى دراسة تخطيط المدن والأقاليم ثم إلى التنمية الاقتصادية ثم إلى مجال تنمية الموارد البشرية، ثم بعد ذلك إلى ممارسة عمليات المساعدات الدولية من أجل التنمية بالبنك الدولي، وكان ذلك تطورا طبيعيا ومنطقيًا، حيث انتقلت من كلية الهندسة بجامعة القاهرة إلى قسم الدراسات العليا بجامعة هارفارد، ثم ممارسة المهنة. ومنذ بداية اهتمامى منذ الصغر بالهندسة المعمارية صاحب ذلك افتتاني بعشق الجمال وحب التعبير الثقافي، وهو الأمر الذى جعلنى مرتبطا بالهندسة المعمارية خلال العشرين عاما الماضية عن طريق النقد والكتابة عنها فى الوقت الذى لم أكن أمارسها ممارسة فعلية. غير أن التزامى بقضايا التنمية الدولية أصبح تدريجيا هو القوة التى تسيطر على حياتى، سواء من الناحية المهنية أو كأسلوب حياة كما أفهمها كواحد من المؤمنين بدين الإسلام.

وفى معالجتى لقضايا التنمية الدولية انعكست خبرتى على قيم المذهب الدولى Internationalist values والنواحى العملية دون الآراء النظرية Pragmatic non-doctrinaire view للعالم وقضاياه الاقتصادية.

وبالرغم من أنني مصري مسلم على المذهب السنّي Egyptian Muslim of Sunni Persuasion فقد تأثرت بعمق بالأفكار والممارسات الأوروبية. ولقد أثرى معرفتي بالمذهب الدولى تقديرى لتراثى والثقافة العربية والمصرية عن حق باعتبارهما جزءا من الثقافة العالمية. وأثناء دراساتى العليا تعرفت على الأفكار الاشتراكية بصفة عامة والماركسية منها بصفة خاصة. ولما كانت المساواة والعدل هما محور الأفكار الاشتراكية فقد كانت لهما جاذبية خاصة عندي، غير أنني وجدت أن الماركسية المادية Materialism of Marxism تتعارض مع التزامى الراسخ بالقيم الروحية. كما كانت الممارسات القمعية لبعض من أطلقوا على أنفسهم مسمى النظم الاشتراكية Socialist regimes تغرس فى نفسى بذور الشك نحو الأسس الأخلاقية لهذا المذهب. وعلى ذلك وبصفة عامة ظلت المثاليات التى تتادى بها الديمقراطية الغربية التى تدعو إلى الحرية الفردية والتسامح من الأمور الواضحة لدىّ والتي كان لها الأثر الخارجى على تفكيرى.

وبالنسبة للمذهب الاقتصادى فقد كان لدىّ تحفظ مزدوج أو نوع من الشك Skepticism* بالنسبة لتأثير اليد الخفية فى السوق أو اليد القوية

* "الشكّية" أو "الشكوكية" مذهب يقول إن المعرفة الحقيقية أمر لا يمكن الوصول إليه، أو إن المعرفة فى حقل معين تكون معرفة غير حقيقية أو لا يمكن التأكد من صحتها.
(المترجم)

والمرنية بالنسبة للتخطيط المركزي. فلم يكن لدى الرأسمالية المتحررة أو التخطيط المركزي أى أساس لتشكيل الصيغة أو التوليفة السحرية لتقديم الحلول لمشاكل العالم سريعة التغير. فالحلول التى تم تطبيقها بنجاح فى الولايات المتحدة الأمريكية أو التى قدمت للتطبيق فى جمهورية الصين الشعبية لا يمكن بالضرورة أن تكون الصيغة الملائمة للآخرين، الذين تختلف لديهم المشاكل المتعلقة بالتنمية كما تختلف مدى البدائل المتاحة لهم اختلافًا جوهريًا.

كان هذا عرضًا موجزًا لآرائى التى حملتها معى فى مهنتى ومهنتى وأثناء القيام بعملى فى مجال التنمية الاقتصادية والتى رأيت أن عرضها للمناقشة على جماعة صباح الجمعة بالبنك الدولى.

جنون العالم:

إن أى إنسان منطقى وعاقل يعيش ويستعرض حالة وشئون العالم اليوم لابد أن يروعه نمو ظاهرة عدم المساواة فى توزيع الثروة والدخل بين الدول والجماعات والأفراد. كما أنه لا يتم الاعتراف بأهم حقوق الإنسان الأساسية والجوهرية، وقليلًا ما تحترم هذه الحقوق. فالشك المتبادل والكراهية العلنية والصريحة يسودان باعتبارهما القوى المسيطرة فى الوقت الحاضر. ويتضافر الجشع والمشاعر العدائية بين الأفراد والجماعات مع القسوة وتحقيق المصالح الشخصية والتنافس بين الأمم.

فالبينة وتراثنا ومواردنا تتعرض إلى استنزاف وتدمير مسعورين لتحقيق المكاسب المادية، وذلك بالرغم من كل المحاولات التي تبذل لتجنب ذلك الدمار. ونجد أنه من النادر أن تتم معالجة حضارية لأى من هذه المشكلات أو يجرى تحكيم سلمى فى إطار القانون، ولكن الصراع المسلح هو الذى يبرز بحيث يصبح الأساس المفضل فى تحقيق أهداف الدول. ويزداد التهور بحيث أصبحنا اليوم نعيش فى ترسانة العالم النووية التى فيها من الأسلحة ما يكفى لتدميرنا جميعا عدة مرات. وإذا أمكن تخفيض ميزانيات الإنفاق العسكرى فى الدول النامية المتقدمة بنسبة ٥٪ فقط - بحيث يمكن توجيه هذه المبالغ إلى البلاد النامية - فإن تدفق المعونات من البلاد الغنية إلى البلاد الفقيرة سوف يتضاعف، ولذلك فإننى أتساءل عن أسباب هذه القبضة المجنونة التى تسيطر على الجنس البشرى: ألم يحن الأوان بعد أن مر العالم بتجربة الحربين العالميتين وذلك بخلاف العدد الذى لا يحصى من الصراعات الصغيرة، لكى يفيق الإنسان وينشئ المجتمع الدولى المؤلف من جميع أمم العالم؟ إن الواقع يقول إننا ما نزال سجناء لأفكارنا الحمقاء حتى الآن.

وبصفتى مسلماً أعيش ما يدور من حولى على مسرح هذا العالم المشوش من أحداث، فإننى أشعر بالدهشة من هذه الخسائر التى تجلبها الإنسانية لنفسها وتتعرض لها، وخاصة تلك الخسائر التى تتمثل فى فقدان الروابط العالمية والتي من الواجب أن توجد بين كل البشر.

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات/١٣).

إن هذه الدعوة العالمية للأخوة والتقوى ليست موجهة للمسلمين فقط، ولكنها موجهة إلى البشرية جمعاء. غير أن اللعنة التي حلت في القرن العشرين على البشرية جاءت من خلال ما اعتنقته من دين جديد يفرق ولا يجمع ويتمثل في القومية Nationalism المتطرفة والضيقة الأفق. إن كل أديان العالم الروحية والسماوية لديها إطار أساسي واسع من القيم الخلقية التي تدعو إلى خلاص البشرية ويؤكد على الشمولية العالمية Universality والتسامح. وهذا الأساس ظل حيا رغم المحاولات المضللة الكثيرة عبر الزمان والتي حاولت قهر الآخرين واستعمارهم واضطهادهم باسم الدين. وفي الواقع كانت هذه الحركات حركات سياسية تسعى إلى وضع بعض المذاهب في قالب شرعي وتستخدم في ذلك اسم الله.

والقومية الشوفينية Chauvinistic nationalism * حلت في الدولة الحديثة على نطاق واسع محل الولاء المحدود للقبيلة، فنشأت فكرة "نحن" و"هم" في الدولة الحديثة التي تحددها الحدود الجغرافية والتي

* المغالاة في التعصب للوطن. (المترجم)

جاءت نتيجة لأحداث تاريخية وقعت أو نتيجة لأهواء بشرية. ولا يمكن أن نعتبر هذه القومية شكلا من التعبير الحضاري والضروري لتحديد هوية الشخص، ولكنها في الواقع مذهب عرقي نظري ينادى بالدولانية Statist يهدف إلى تحقيق الكثير من المصالح القومية National interest لا إلى تحقيق المصالح البشرية. فلقد جلبت أسلحة دمار كثيرة باسم المصالح القومية وبشكل لم يسبق له مثيل، كما هدت الدول المجاورة أيضا بعضها البعض باسم المصالح القومية، كما كانت المصالح القومية من بين مبررات العديد من الحروب. إن البعد الأخلاقي الغائب تماما في الأيديولوجية الخاصة بالدولانية أباح وبرر ارتكاب أكثر الجرائم بشاعة ضد الأمم سواء على الصعيد الخارجي بالنسبة للدولة أو ضد المواطنين داخلها ممن تحوم حولهم شبهة تهديد الأمن القومي للبلاد. وتعتبر هذه العقيدة عقيدة أنانية تؤدي إلى التمسك بشعار (بلدى على حق سواء أخطأت أو أصابت). فالقومية تعتبر قوة مدمرة نرى أثرها في إدارة شئون العالم اليوم. ومما يؤسف له أنها، على ما يبدو، سوف تظل مسيطرة ومهيمنة على الشئون الدولية حتى المستقبل المنظور.

إن ضياع القيم الأخلاقية في العالم يعتبر تحديا علينا أن نواجهه بأقصى ما نستطيع من قدرات. وسوف يلجأ البعض إلى فرض القيم بقوة السلاح، غير أن الإكراه والقوة أمران غريبان أساسا وتاماما عن الإسلام وإطار قيمه.

"لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" (البقرة/٢٥٦).

والسؤال الذى نواجهه الآن هو: كيف نستطيع أن نتعامل مع هذا التحدى؟ فالمسلمون ككل ومن يوافقون على القيم الأخلاقية العالمية مدعوون لأداء دور مهم بين أمم وقبائل هذا العالم.

"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم" (البقرة/١٤٣).

إن رسالة الإسلام تأمرنا بأن نساعد الإنسانية وبأن نكون شهداء عليها ولا نفرض بالقوة أو من خلال أوامر إمبراطورية شينا على أحد. والشهادة هنا تعنى اتباع المثل الصالح الذى يمكن أن يحتذى. فالإسلام يقول لنا إنه يجب ألا يكون هناك اضطهاد أو قسوة ولا يجوز إجبار أحد على التحول إلى طريق بعينه. فالطريق الوحيد المفتوح أمامنا جميعا هو طريق العقل والتسامح واتباع المثل الأخلاقية العليا. فالمجتمع العادل والمتوازن الذى دعا إليه القرآن الكريم يمكن أن ينشأ من خلال تعامل كل منا مع ما لديه من مناطق ضعف.

"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون" (المائدة/١٠٥).

وباعتباري مسلما ينتمى إلى بلد نامية فإن على واجب محاولة استعادة القيم الروحية لتكون قيما هادية ومرشدة في التعامل مع مشاكل التنمية. وإنه لمن المدهش والمؤسف في الوقت نفسه أن نجد أن معظم الصفوة الحاكمة في البلاد النامية تفسر التنمية على أنها عملية الوصول لتحقيق الثروة ومستوى المعيشة المماثل لما هو موجود في المجتمع الاستهلاكي الغربي. والاحتمال الأرجح هو أن هذا الهدف في معظم البلاد النامية هدف بعيد المنال ولا يتحقق إلا في غير السيناريوهات التي تطرح للمستقبل والتي تكون متناقضة مع كل من العقل والواقع. ولقد أوضح روبرت مكنمارا Robert McNamara* عام ١٩٧٧ عدم معقولية هذا الهدف حيث رفض أن يكون مبدأ تضيق الهوة Closing the gap مقياسا لنجاح جهود التنمية حيث قال:

إن تضيق الهوة بين الدول الصناعية والدول النامية لم يكن في المقام الأول في أي وقت من الأوقات الهدف الحقيقي لنا. وحتى لو سلمنا بوجود فروق ضخمة في القاعدة الرأسمالية والتكنولوجية الموجودة في

* روبرت مكنمارا تولى رئاسة البنك الدولي خلال الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٨١.
(المترجم)

الدول الصناعية، وذلك بالمقارنة بما هو موجود في الدول النامية لا توضح لنا أن هذا الهدف غير محتمل التحقيق أو أنه سوف يتحقق في يوم ما بعيد. كما يتضح أنه لو استطاعت الدول النامية مضاعفة معدل النمو بالنسبة للفرد فيها، وفي الوقت نفسه ظلت الدول الصناعية على معدلها القديم في النمو، فإنه رغم ذلك لن تضيق الهوة تماما إلا بعد قرن من الزمان. كذلك نجد أن سبع دول فقط من بين أسرع الدول النامية نموا هي التي ستتمكن من تضيق الهوة خلال مائة عام، بينما تستطيع تسع دول أخرى تحقيق ذلك خلال ألف عام.

ورغم أن هناك شكا في إمكانية تضيق الهوة، فإن الجهود المبذولة لتحقيق ذلك أمر يستحق بذل الجهود المطلوبة له. لقد أثارت الأبحاث الجادة مزيدا من الشك حول إمكانية استمرار أسلوب الاستهلاك المتبع في العالم الصناعي في حالة قيام بقية البشرية بمحاكاته. وحتى بدون هذه الحقائق والاهتمامات العملية يجب علينا أن نعترف بأن كل ما يلمع ليس ذهبا، وأن التنمية يجب أن يكون لها معنى أكبر من التراكم المطلق للبضائع العالمية. وبالرغم من أن التكنوقراطيين لا يستطيعون تفادي الاصطدام مع مجموعة القيم الخاصة بهم وذلك عند قيامهم بانتقاء الاختيارات، فإن علم الاقتصاد لم يكن في أي وقت من الأوقات - ولن يكون في يوم ما - غير متأثر بمجموعة القيم في المجتمع، كما أنه لم تكن

له ولن تكون له قيم محايدة. ورغم وجود من يجادلون قائلين إن التحليل الاقتصادي يجب أن يعبر عن نفسه بلغة موضوعية تعتمد على الأرقام الواقعية والمجردة، فإن الحقيقة توضح أن مواصلة السعي للاعتماد على الأرقام المجردة بهذه الصورة يعتبر فقط سعيًا وراء السراب، وذلك ينطبق حتى على بعض العلوم المجردة كعلم الأحياء وعلم التشريح. فالعلماء عندما يعملون ويفكرون ليسوا في معزل عن نظام القيم الذي يحكمهم، كما أن معتقداتهم وقيمهم السابقة تتدخل في أعمالهم ولها تأثير عليها وعلى ما يقومون به من تحليلات. لذلك فإنه ينبغي علينا أن نتمسك بالإنزاهة والوضوح ونتجه نحو القيم التي تكفل الحقوق التي ندافع عنها ونؤمن بها.

الخلافة على الأرض Stewardship on the Earth:

إن أي اقتراح لبرنامج عمل تنفيذي يجب أن تتبع جنوره من نظام القيم الذي نؤمن به. وأعتقد أن نقطة الانطلاق لبدء العمل التنفيذي تتمثل في تحديد الهدف من وجودنا على الأرض. وبعد تفكير وتمحيص طويلين في العقيدة الإسلامية، فإنني أعتقد أن للإنسانية دورًا مماثلًا لدور الخليفة على الأرض. وينطوي تحقيق هذا الدور على اختبار يتطلب مواجهة الصعاب بالصبر والعمل. وأعتقد أن مفهوم الخلافة على الأرض يستحق بعض الاجتهاد لفهمه وتحديده وتفسيره. حيث يلعب هذا المفهوم دورًا مركزيًا في تشكيل رؤيتي الروحية ومفهومي للتنمية المادية. ومن العجيب

والغريب أن هذا المفهوم لم يحظ بما يستحقه من البحث والاهتمام لدى علماء العقيدة والشريعة الإسلامية، وذلك على الرغم من أنه ذكر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

فالكلمة العربية (خليفة Khalifa) (واستخلاف Istikhlaf) التي قمت بترجمتها إلى الكلمة الإنجليزية Stewardship ظهرت في كثير من الآيات والسور القرآنية، وقام بترجمتها كثير من العلماء البارزين بعدة كلمات أخرى مثل خليفة Vicregent للإله على الأرض أو المبعوث Agent أو الوارث Inherent أو Successor. أما بالنسبة لى فإننى أعتقد أن مفهوم الخلافة واللفظ الإنجليزي الذى اخترته لها يغطى الجوانب المتعددة لطبيعة مهمة الإنسان على الأرض؛ إذ الخلافة تعتبر مركزاً لكل عمل إنسانى فى الكون. والله سبحانه وتعالى هو الذى اختار أن يكون الإنسان خليفة فى الأرض وخصه بهذه المهمة.

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون" (البقرة/ ٣٠).

بحيث يكون على الخليفة أن يتحمل مسئوليات خاصة لكى يرقى إلى مستوى ومفهوم الخلافة.

"ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" (يونس/ ١٤).

كما أن التصرفات والسلوكيات المتوقعة من الخلفاء على الأرض قد تم التعبير عنها وتحديدتها في آية أخرى حيث يخاطب الله سبحانه وتعالى داوود عليه السلام بقوله:

"يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضت عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب" (ص/٢٦).

وهذه الوصية الشمولية لكل العالم واضحة تماما في اللغة العربية حيث إن الكلمة التي استخدمت في هذا المقام وهي الخليفة هي نفس الكلمة التي استخدمت للتعبير عن الوارث أو Successor في آيات أخرى من القرآن الكريم تخاطب كل من يؤمن بالله سبحانه وتعالى:

"هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقنا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا" (فاطر/٣٩).

ولقد ارتبطت رحمة الله سبحانه وتعالى على عباده بحسن أداء الخليفة. كما أن التكليف بالخلافة ينتقل من جيل إلى جيل ومن جماعة إلى جماعة أخرى.

"وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" (الأنعام/١٣٣).

وإن الاضطلاع بمسئولية الخلافة يتضمن ويرتبط بجميع تصرفات المؤمن، وعلى هذا فهي بمثابة الجوهر الذي يحدد التصرفات السليمة للمسلم الحق في جميع الأوقات. ولمفهوم الخلافة على الأرض أبعاد ثلاثة، وهي ممارسة المسئولية والتعرض للاختبار والابتلاء ثم تحمل المشاق في صبر وجلد. كما أن المسئولية تجاه الله تتضمن المسئولية في تحقيق الخير على الأرض وللمخلوقات الأخرى، بالإضافة إلى تحقيق الخير للآخرين من البشر في الأجيال القادمة. وذلك كله بالإضافة إلى كون الخلافة نوعاً من التعرض للابتلاء والاختبار.

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم" (الأنعام/١٦٥).

"قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون" (الأعراف/١٢٩).

ولقد أوضح التعرض لاختبار البلاء أن العبادات الحقيقية تعد ذات أهمية أكبر من تكرار الكلمات في الصلوات.

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

لهم وليبدلتهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" (النور/٥٥).

ولأن المؤمنين سوف يحاسبون على أعمالهم، فإن تصرفاتهم يجب أن يحكمها الضمير، لا القوانين فقط. ولذلك فإن على المؤمنين أن يتأكدوا من أن أعمالهم عادلة وليست ظالمة، وأنها صواب وليست خطأ، حتى ولو كانت هذه الأعمال التي هم بصدد ممارستها مشروعاً.

وأخيراً فإن مفهوم الخلافة يعنى أنه يجب على البشرية أن تتحمل المصاعب في صبر واحتمال دون أية سلبية أو تعصب. "لقد خلقنا الإنسان في كبد" (البلد/٤).

ويعتبر ذكر المصاعب هنا بمثابة الدعوة إلى العمل بالتنفيذ دون توقع أو انتظار للجزاء السريع أو الفوري، كما أنها أيضا تدعو للجهد والمثابرة في إطار المدى البعيد.

مجتمع التوازن والعدل:

أولاً: إن ممارسة الخلافة على الأرض لها مكونان أساسيان:

الأول يمكن أن يسمى تنمية الأرض "Development of the earth" وهذا يشمل تطويع الطبيعة لخدمة أغراض البشر واستزراع مواردها وزيادة إنتاجها. ولكن يجب أن يحدث ذلك في ظل مفهوم الخلافة

وليس على سبيل الجشع والاستغلال، حيث يجب أن تكون الأعمال متوازنة مع فرض حدود على الجشع والأطماع الشخصية التي قد تجور على الرعاية المطلوبة للأنظمة الآخذة في النمو المضطرد.

أما المكون الثاني للخلافة فيتعلق بالعمل على تنظيم هؤلاء الذين يعملون على الأرض ويتمتعون بخيراتها وإنتاجها على نحو عادل يتسم بالتعاون المتبادل، ويمكن أن يتحقق هذا في مجتمع التوازن والعدل. فمجتمع التوازن والعدل الذي يقوم على مبادئ الإسلام له ملامح كثيرة أولها أنه يدعم ويرعى الحرية. والإسلام يعتبر دائما دين الحرية وعقيدتها؛ فهو يحرر المؤمن من كل مخاوف الدنيا ويخلصه من كل القيود والأصقار كما أن المؤمن يستطيع أن يتصل بربه مباشرة دون توسط من رجال الدين. والمؤمنون في ظل الإسلام يشعرون بأنهم سادة لأعمالهم والله وحده هو الذي سيتولى حسابهم. وعلى هذا يكون إخلاصهم في طاعة الله كاملا. وبما أن الطاعة للمؤسسات الدنيوية وللإنسان أمر واجب، فهي لذلك تخضع للضمير، ولذلك فالمؤمنون أحرار ولكن هذه الحرية محددة بأطر وحدود القانون.

"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم" (البقرة/178).

إن أى مجتمع يحاول أن يعيش فى ظل مبادئ الإسلام لابد له أن يعمل على حماية حرية أفراده وكرامتهم، وذلك من خلال إطار شرعى لا يسمح بإهانة فرد من أفراده. وهذه الحرية تنطبق على الأسرة كما تنطبق على المجتمع، كما يجب أن تترجم هذه الحرية أو تفسر من خلال معناها الواسع.

ثانياً: إن مجتمع التوازن والعدل يشجع على البحث عن المعرفة والسعى للوصول إلى الحقيقة. والبحث عن المعرفة يعتبر سمة من أهم السمات المميزة للإسلام؛ فكلمة المعرفة Knowledge يشار إليها فى العربية بالعلم Ilm ولقد وردت واستخدمت هى ومشتقاتها فى القرآن الكريم ٨٨٠ مرة.

ولكن المعرفة لا تتوقف عند نقطة محددة، حيث إنها تعتبر المنطلق والبداية لتقييم الحقيقة (والكلمة العربية لها هى Haq) وهذا الحق يمكن الكشف عنه كما يمكن إدراكه فى عالمنا هذا. ويستطيع المؤمنون الاستمتاع بالنظر إلى ما حولهم لإدراك الحقيقة ومعرفتها.

ولقد أمر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أتباعه بالبحث عن العلم حتى ولو كان فى الصين. ومن الجدير بالذكر أن الصين فى ذلك العهد كانت تعتبر نهاية العالم أو فى آخر الدنيا. ولقد وضع الرسول كذلك العلماء فى موضع متميز ومنزلة رفيعة، حيث قال ما معناه أن الحبر

الذى يكتب به العلماء مثله مثل دم الشهيد. كذلك فإن أول كلمة نزلت على الرسول فى القرآن الكريم كانت الأمر بالقراءة والتعلم والبحث عن المعرفة.

ثالثاً: يتميز مجتمع التوازن والعدل بالعمل والصناعة والإنتاج حيث إنها الطريق إلى الخلاص؛ فالإيمان يرتبط بالعمل.

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون" (التوبة/١٠٥).

ويجب أن يراعى العمل تحقيق الصالح العام، حتى لو كان هذا العمل عملاً خاصاً، سواء أكان حرفة أم إنتاجاً فكرياً فإنه يجب أن يؤدى بنظام ودقة لتحقيق ناتج يكون على مستوى عال من الجودة. كما أن المؤمن فى الإسلام يعتبر مسئولاً عن غيره من البشر، وعليه أن يعمل على إعادة وتحقيق العدل بكل ما فى وسعه أو إلى أقصى ما يستطيع، وذلك كما جاء فى الحديث الشريف Hadith الذى يتضمن قول الرسول عليه الصلاة والسلام والذى يعتبر المصدر الثانى فى العقيدة الإسلامية بعد القرآن الكريم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» حديث شريف.

وهذا الحث على العمل يؤكد بشدة ضرورة أن يكون المرء نشيطاً ويعمل الصالح على كل المستويات، فالتأمل الفكرى لا يعتبر غاية فى حد

ذاته، ولكنه يعتبر وسيلة لتجديد الذات لكي تصبح قادرة على القيام بالمزيد من الأعمال الحسنة في المستقبل.

رابعاً: إن مفهوم العدالة في مجتمع التوازن والعدل يعتبر مفهوماً مطلقاً. فبالنسبة للمسلمين كل الأعمال تعتبر نوعاً من الاختبار، ويتحدد النجاح فيه طبقاً للتصرفات والعمل بأسلوب عادل. ولقد سعت التشريعات الإسلامية لوضع حدود لما هو جائز وما يعاقب عليه المرء من أفعال في تعاملاته مع الآخرين، كما حددت بالضبط نوع العقاب الذي يجب أن يوقع في حالات الخروج عن هذه الحدود. ولهذا فإن المسؤولية تقع على المشرعين لتطوير وتنفيذ القانون بالعدل التام على قدر إمكانهم. ولا تقبل التشريعات التراخي إذا كان الهدف منها أن تعكس أي نوع من التوازن في ميزان القوى بين الجماعات والأفراد، أو إذا كانت تتعدى على حقوق الضعفاء. ولقد وجد العلماء أن هناك أشياء تكون أبعد عن قدرات المجتمع المسلم وتكون في يد الخالق وحده عز وجل، وهذه حقيقة، غير أن الملامح الجوهرية والأساسية في المجتمع الإسلامي تتحدد في أنه يسعى لإقامة العدل على الأرض ولا ينتظر تحقيقه في ملكوت السموات.

خامساً: إن التغيير في مجتمع التوازن والعدل يرتبط بالصالح العام، وفي ظل الإسلام يعتبر الصالح العام مبرراً لتغيير بعض القوالب القديمة لتنمشى مع كل المتغيرات في الحاضر والمستقبل. وإن مواصلة السعي

لتحقيق الصالح العام تدعو إلى إصدار وابتكار تشريعات جديدة، ومثال ذلك اتفاقيات التبادل التجاري الإقليمي أو نشأة مؤسسات التمويل الجديدة التي يمكن دعمها على أساس خدمة الصالح العام. ومن ناحية أخرى فإن التشريعات الجديدة التي يكون غرضها خدمة أو منفعة فئة قليلة على حساب مصالح الجماهير ككل، مثل منح حق المنفعة للأراضي التي قد ينشأ عنها إحداث أضرار يتعذر إصلاحها في البيئة، وذلك من خلال إتلاف الغابات أو امتصاص محتوى المناجم Strip-mining، من الممكن أن ترفض على نفس الأساس.

إن التفسير الليبرالي Liberal interpretation لهذا المفهوم يتمثل في (أن كل ما هو غير ممنوع مباح) ففي كل المجتمعات المسلمة توجد آليات Mechanisms وإجراءات Procedures يتم العمل بها بالتفصيل للتأكد من أن المبادرات الجديدة لا تزال متفقة مع المبادئ الأخلاقية للقرآن، وأن هذا التغيير أو التطور لن يؤدي مع مرور الوقت إلى التخلي عن المبادئ الأساسية للأخلاق التي تم وضعها وسمادت في الأصل في مجتمع المدينة المنورة Medina في القرن السابع.

وأخيرا لأن العدل يجب أن تحوطه الشفقة فقد أحاط مجتمع التوازن والعدل الفقراء والضعفاء والمحتاجين بالشفقة والرحمة على هذه الفئة من الناس الذين يعتبرون أقل حظا من غيرهم، وكذلك يوصى بالالتزام

بالشهامة عند الانتصار والعتو عند المقدرة وخاصة في حالات القوة. فالنظام الإسلامى يعتبر أول مجتمع يقدم لأفراده إطارا للأمن الاجتماعى والرعاية بحيث يكون للفقراء والمحرومين حق معلوم فى جزء من المال العام، بحيث لا يتركون للاعتماد على الإحسان. فالزكاة Zakat تعتبر ضريبة على الأغنياء والفقراء الحق المطلق فيها. وقد فرض الله الزكاة ووردت فى القرآن الكريم منذ الأيام الأولى فى عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فى المدينة.

ورغم أن هذه المبادئ تعتبر بمثابة أسس جوهرية فى الإسلام فإن هناك براهين كثيرة على صعوبة اتباعها. كما توجد بعض المجتمعات الإسلامية التى تعرضت لحكم الطغاة وسيطرة الفساد كغيرها من المجتمعات الأخرى، ولكن بالرغم من ذلك فقد ظلت الرسالة الخاصة بهذه المبادئ تلهم الجيل بعد الجيل من المصلحين الذين حاولوا أن يفسروها من خلال أحكام معاصرة وذلك فى إطار الالتزام الراسخ بمجتمع التوازن والعدل.

إن نموذج التنمية الذى يتمشى مع أسس الإسلام سوف يتطلب موقفا جديدا تماما يختلف اختلافا جوهريا عن المبدأ الاقتصادى الكلاسيكى الجديد فى الغرب Neo-classical economic approach فى ناحيتين مهمتين.

أولاً: إنه يتطلب رؤية كلية وشاملة للتنمية بحيث تتضمن النواحي الاجتماعية والسياسية والثقافية والطبيعية والاقتصادية.
ثانياً: أن يكون التركيز فيها على الإنسان وليس على الناحية الاقتصادية فقط. إن هذا التركيز على البشر يعتبر تخلياً عن التيار السائد في الفكر الاقتصادي حيث يكون النمو الاقتصادي أساساً مشتقاً من العمل وليس من خلال الاستثمار، ولا تعتبر النفقات على الموارد البشرية أكثر من كونها نفقات اجتماعية رأسمالية غير مباشرة
Social overhead capital.

معايشة الإيمان:

في الوقت ذاته الذي كنت أحاول فيه إجراء بحوث عن موضوعات نظرية من وقت لآخر سعياً وراء التوصل إلى النموذج الشامل للتنمية استغرقت تماماً في مهمة مواكبة العالم غير المتكامل والتعايش معه. ولقد كان الأساس لطبيعة عملي في البنك الدولي هو العمل على مساعدة كثير من المجتمعات الموجودة التي يسود فيها الفقر والمرض والجوع والجهل وتحسين أحوالها. هذا ولقد أتاح لي عملي فرصة واسعة لمعايشة الإيمان يوماً بيوم، وتتحكم الأخلاق والحكمة عندما أترك ضميري يقودني ويرشدني وأنا أتخذ القرارات. إن معايشة الإيمان تعتبر أمراً له أهمية كبرى، وخاصة في الأمور التي تتعلق بضميري المهني والتي دائماً ما

تدعوني إلى محاولة دعم مجتمع التوازن والعدل في كل من مجتمع البنك الدولي البلاد التي تقوم بخدمتها ونعمل بها. ومن حسن الحظ أن البنك الدولي يعتبر مكانا نموذجيا لشخص له ضمير حي في العمل، حيث يلتزم البنك الدولي بتمثل العليا ودعم النمو الاقتصادي والقضاء على الفقر في كل أنحاء العالم. فالمجال مفتوح للفكر الرشيد والمناقشات الجادة لتحقيق هذه الأهداف، ولقد تمت دراسة مجموعة من الأفكار الجديدة في هذا الصدد بقدر كبير من الموضوعية.

لقد عبر البنك الدولي الجسر السياسي لتقرير وتحديد مواقفه في كثير من القضايا. فالمناقشات التي حدثت في أوائل السبعينيات الخاصة بإعادة التوزيع وفقا للنمو أنهت الزعم القائل بأن توزيع الدخل أمر لا تختص به الوكالات الدولية، فتلك أمور تختص فقط بالسياسات الداخلية للدول ذات السيادة. وفي إطار البنك الدولي فإن معاشة الإيمان تعنى عدة أشياء، فهي تعنى مواصلة البحث عن الحقيقة حيث يجب فحص الأدلة بعناية كما يجب الانتباه التام إلى ما يحدث فعلا أثناء تنفيذ المشروعات، كذلك يجب تدعيم الأبحاث عن القضايا المعقدة مع مواصلة الانفتاح حتى يمكن الوصول إلى أفضل الحلول الممكنة. فإن الوصول إلى الحقيقة أمر ممكن وذلك عن طريق البحث عن المعرفة والتساؤل والفحص.

إن معاشة الإيمان تعنى وتتضمن قول الصدق. وبالنسبة للقضايا الصعبة التي قد تكون محرجة يجب ألا نغمض أعيننا عنها، كما لا يمكن

استبعاد الأمور الحساسة، إذ إنَّ الالتزام بالحقيقة يعنى ضرورة الوقوف والتصدى لمناقشة القضايا المهمة مهما كانت تحتوى على أية تناقضات.

وتعنى معايشة الإيمان أيضا تنفيذ الحق وذلك كما أراد لنا الله أن نفهمه، إذ إنَّ التحليلات والمناقشات يجب أن تتبع بالعمل الجاد والواضح. ولذلك فإنه يجب دعم كل السياسات والبرامج والمشروعات التى يمكن تدعيمها فنيا وماليا عن طريق المجتمع الدولى. كما يجب دعم الإصلاحات التى تقوم بها الحكومات فى الدول النامية، وعلى المجتمع الدولى أن يعبئ إمكانياته لدعم الجهود للوصول إلى تحقيق هذه الإصلاحات.

كما تعنى معايشة الإيمان كذلك أن نعطي حق التصويت للمحرومين منه فى العالم؛ فهناك ملايين من صغار الفلاحين وكذلك الفقراء من سكان المدن الذين أدى ضعفهم السياسى إلى تعرضهم إلى بؤس لا نهاية له. كما أنها تعنى أيضا المساواة فيما يختص بالأمور التى نجد فيها تفرقة بسبب أو على أساس الجنس، كما تعنى أيضا الوقوف إلى جانب الفقراء وخاصة فى أوقات الحاجة. إن مصالحتهم يجب أن يتم إبرازها فى الأروقة الخاصة بأقطاب القوة حيث تناقش هناك السياسات والقرارات المهمة.

ومعايشة الإيمان تعنى أيضا الموازنة بين المصالح والبدائل المطلوبة بأسلوب عادل يتسم بالرحمة ولا يقوم فقط على أساس فنى أو تشريعى،

فالحاجة إلى العدل والمساواة تعتبر أمرا على جانب كبير من الأهمية، وخاصة في الحالات الحالية مثل أزمة الديون حيث تتنافس مصالح وطلبات واقعية على مصادر محدودة مما يدعو إلى ضرورة اللجوء إلى التحكيم الدائم. كذلك فإن الالتزام بتنفيذ العقود وفرض الضرائب على هؤلاء الذين أثقلت الحياة كاهلهم، والمتطلبات الخاصة بالتجارة الدولية والعدل والمساواة في تحمل الأعباء. كل هذه تعتبر من الأمور التي لا تزال تشكل الكثير من المشاكل المعقدة التي يجب طرحها للمناقشة. إن إيجاد الصيغة المناسبة يعتمد على الظروف المعينة لكل حالة، ولكن هناك أمرين أساسيين ومهمين بالنسبة لتلك المناقشات الفنية والمعقدة وهما يتعلقان بما يلي:

أولا: ضرورة الفهم الواضح بخصوص من سيدفع؟ ولماذا؟

ثانيا: وجود موقف متوازن للملاءمة والربط بين الطلبات الواقعية مع القدرة على الدفع.

ومعايشة الإيمان تعنى أيضا تشجيع ودعم التعاون الدولي، ويتضمن هذا تشجيع إقامة حوار أفضل بين الدول المتقدمة والدول النامية، والعمل على توفير شروط متوازنة للتجارة ودعم وتشجيع الصفقات الدولية. كما أنها تعنى أيضا تشجيع ودعم التكامل الإقليمي والذي يعتبر ضرورة مهمة لا يمكن التغاضي عنها، كما أنه يعتبر هدفا سياسيا واجتماعيا وضحت

الرغبة فى تحقيقه مؤخرًا. وتقدم أفريقيا جنوب الصحراء تحديًا حقيقيًا للنظر بجذبة إلى الدعوة الصادقة إلى العالمية والأخذ بالجهود المبذولة لبناء المؤسسات الإقليمية للوقوف فى مواجهة القومية وذلك بالرغم من مضى سنوات طويلة من النضال والمحاولات الفاشلة.

إن تحقيق مجتمع التوازن والعدل فى عالم يسحقه الفقر وبغلب عليه الحرمان من المساواة يعتبر نوعًا من التحديات. كذلك فإن عملية تخفيف وطأة الفقر وتوقيز الضروريات لا تعتبر عملاً جيداً أو إضافة إلى المسؤوليات الأساسية للبنك الدولى، والذى من مهامه الأساسية دعم النمو الاقتصادى والذى يعتبر المحور الأساسى فى التنمية، كما أنها تسبغ على ما نقوم به من جهود بصورة يومية معان كبرى وأهمية لا تخطنها العين. ولذلك فإنه بين السعى المتأنى والخطوات السريعة فقد قررت أن أمارس وأقدم النصح فى عمليات وضع برامج إصلاح وتعديل الاقتصاد القومى بحيث تصبح الأبعاد الاجتماعية لهذه البرامج ركيزة أساسية لعملية صنع القرار.

وبصفتنا خلفاء على الأرض كيف لنا أن نسكت على ما يحدث من تدمير للبيئة بشكل مستمر وخصوصاً فى أفريقيا؟ إن عملية التصحر المخيفة وإزالة الغابات خلقت كابوساً حقيقياً أصبح جاثماً هناك بدلاً من المساحات الشاسعة التى كانت خضراء مورقة. وتوضح الإحصائيات الأخيرة أن غابات أفريقيا التى كانت موجودة فى عام ١٩٨٠ ووصلت

مساحتها إلى ٧٠٣ مليون هكتار يجرى إزالة ما عليها من غابات بمعدل ٣,٧ مليون هكتار كل عام وذلك بعد أن أصبح هناك ٥٥ مليون أفريقي يعانون من النقص في وقود الخشب. وعلاوة على ذلك فإن ما بين حوالي ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من المراعى، و ٨٠٪ من الأراضى التى تعتمد على الري بالمطر، و ٣٠٪ من الأراضى الزراعية التى تستخدم الري كلها تأثرت بعملية التصحر.

إن دعم حملة قومية قوية تهدف إلى الوقوف ضد هذا التيار وإعادة البيئة الطبيعية لما كانت عليه لا يعتبر نوعاً من الشفقة على الأراضى التى تدمر بصفة خاصة، وإنما هو جزء من دور جوهرى لوجودنا على هذه الأرض، حيث إنه علينا أن نعتنى بها ونسلمها غنية - لا فقيرة كئيبة- للأجيال التى ستأتى بعدنا، والتى ربما لم تولد بعد. وفى خارج البنك الدولى فإننى أمارس اهتمامات متوازنة تهدف إلى الارتقاء بالتعبير الفنى المعاصر عن الثقافة والجماليات فى المجتمعات الإسلامية. ولقد وقع اختياري على مجال الهندسة المعمارية وفن النقد المعماري حيث يعتبر المعمار مرآة للمجتمع ينعكس على صفحاتها أسباب ضعفه وأمراضه، تماماً كما تنعكس عليها علامات صفائه وهدوئه ورفاهيته. وبدون رومانسية الماضى فإننا نجد أن الضواحي التى تصلح لإقامة المباني فى مجتمعات مثل مالى أو النيجر، تعكس بوضوح صفاء وسكون حضارة

ثقافية عريقة لهذه المجتمعات، استطاعت أن تبقى في سلام مع نفسها بالرغم من المصاعب الشديدة التي تواجهها هذه المجتمعات، وعلى العكس من ذلك فكم من المدن الحديثة في العالم الثالث تخيم عليها أمارات تعبر عن القلق وروح العصر!! إن الطاقات الضعيفة بالإضافة إلى البؤس المزرى تنعكس في الرؤية المهترئة للأفراد في هذه المجتمعات.

وفي مواجهة الفقر المذل وفقدان الهوية أصبح الناقد المعماري قوة بناءة وخلاقة. حيث لابد للناقد أن يقول ويعكس الحقيقة كما يراها، ويساعد من خلال ذلك على إيجاد توازن بين احترامنا للماضي واحتياجات الحاضر، مع تذكير الناس بالحقيقة الباقية بالنسبة لأنفسهم ولهويتهم. ولذلك فإن مفهوم الخلافة على الأرض يتعلق بالروابط بين البشر والبيئة سواء الطبيعية أو الصناعية.

إن هذين الوجهين اللذين أشرت إليهما عن عملي قد شكلا سويا حياتي الوظيفية، ولم يكن لأحدهما أن يحل محل الآخر، ولم يكن لي أن أشعر بالرضا التام بدونهما معا. ولقد كان من حسن حظي ومن دواعي سروري أن أعمل في مكان مكنتني من أن أعطي كل وقتي لتحقيق هذه الاهتمامات.

يتفق مؤلفو هذا الكتاب بخصوص القضايا الكبرى في عصرنا هذا على:
القومية الحادة العنيفة، والحروب بأشكالها الكئيبة، والمحركة النووية،

وغياب المعتقدات الأخلاقية الذي سمح بوجود أنماط الاستهلاك المتوحشة، وميزانيات التسليح الضخمة جنباً إلى جنب مع الفقر المذل وسوء التغذية والجوع، وغياب احترام حقوق الإنسان الأساسية، والاستهانة بالبيئة في سبيل تحقيق أهداف قصيرة المدى، وغياب رؤية شاملة للتعامل مع هذه المشكلات.

وإن الوسيلة التي يجب أن تستخدم في التعامل مع هذه القضايا التي تحيط بالعالم تتمثل في قيام كل فرد أو كل مجموعة بإصلاح الذات أولاً، ولطالما تم التأكيد على إصلاح الآخر، أو الأمة الأخرى، ولكن دعونا نجعل كل فرد منا يؤسس سلوكه على مبادئ تنبثق من تقاليدنا الأخلاقية، دعونا جميعاً نحاول أن نرتقى إلى مستوى مثلنا العليا .

مراجع وملاحظات:

انظر:

Robert S. McNamara "Address to the Board of Governors", The World Bank, Washington D.C. , Sept. 26, 1977, p.7.

انظر مثلاً:

Stephen Jay Gould, The Mismeasure of Man, New York: W.W. Norton, 1982, p.74.

للمزيد من المعلومات بخصوص مناقشة آثار التحديث المتسارع على

البيئة، انظر:

I. Serageldin, "Rural Architecture In the Yemen Arab Republic." In *The Changing Rural Habitat, Volume I: Case Studies*, pp. 1-10. Proceedings of Seminar Six in the Series *Architectural Transformations in the Islamic World*, held in Beijing, People's Republic of China, October 19-22, 1981. Singapore: Concept Media Ltd. for the Aga Khan Award for Architecture, 1982.

خاتمة

ديفيد بيكمان

تعد كل مقالة في هذا الكتاب تعبيراً عن الإيمان وتوضيحاً للعلاقة بينه وبين الأدوار التي نلعبها في العالم وفي التنمية الاقتصادية، وإننا نتفق جميعاً على أن الإنسانية في طريقها إلى مواجهة صعوبات حقيقية - وربما يصل الأمر إلى حد الكوارث - وإذا لم يكن للقيم الروحية أثر في مسيرة تطور الإنسانية ونموها، وعلى الرغم من أن الأحداث الأخيرة في أوروبا الشرقية تعد أحداثاً مشجعة، فإننا نعتقد أن التجاهل العام للاعتبارات الأخلاقية والدينية أمر يعرض العالم الحديث للخطر .

وإننا لم نبدأ مناقشاتنا هذه باعتقاد أكيد بأن الكارثة قادمة، وليس من بيننا من يتسم بالتشاؤم، كما أننا، في الواقع، نفضل ألا تكون رؤيتنا للأمور من هذه الزاوية، ولكن في إطار التعبير عن معتقداتنا وما تتضمنه هذه المعتقدات من معانٍ، دفعنا تقاليدنا ودفعنا تحليلنا للواقع في هذا الاتجاه. ويرى بيكمان وسراج الدين أننا بين يدي الله، أما أجروالا وبيرميستر فيقولان إننا نقف عند مفترق الطرق في تاريخ التطور الإنساني، ولكننا جميعاً نؤمن بأن مسيرة التاريخ المعاصر يجب أن يعاد تشكيلها في إطار من القيم، وذلك حتى نتمكن من تفادي الكوارث التي قد تنتج عن الوضع الحالي.

وفى وقتنا هذا، ربما أكثر من أى وقت مضى، يعيش العالم كله تاريخاً واحداً، ويجب أن تخاطب جميع الأديان والتقاليد الأخلاقية الخبرات العالمية المشتركة فى القرن العشرين، فبالنسبة لنا جميعاً اكتسبت مشكلات سياسية واقتصادية معينة أهمية دينية. طوال الجيل الماضى كانت الإنسانية تطور من قدرتها على تدمير ذاتها عن طريق الأسلحة النووية، وهذا الواقع الجديد يعطى للتاريخ طابعاً حزيناً، خاصة وأن هذا القرن يتصف باتجاهات قومية لم يسبق لها مثيل. كما أنه على الرغم من أن الحرب الباردة قد خفت حدتها إلا أن الشرق الأوسط تحيط به الحروب. وكذلك فإن ميزانية التسليح فى العالم لم تتخفض كثيراً، أما القلاقل فى الاتحاد السوفيتى فتتذر بسيناريوهات جديدة قد تؤدى إلى حرب نووية.

ولما كان العالم قد أصبح أكثر ارتباطاً ببعضه البعض عن طريق الاتصالات الإلكترونية والتجارة، فقد تحولت المطالبة التقليدية بالعدالة الاجتماعية إلى النطاق العالمى، وفى عالم نرى فيه ضحايا المجاعات فى نشرات الأخبار كل ليلة لا يمكن أن يقتصر إحساسنا بالشفقة على أبناء بلدنا فقط. وفى عالم تدور خمس منتجاته فى تجارة حول العالم تحثنا كل القيم الأخلاقية على تقليل الفقر والجوع اللذين مازالا يسودان جزءاً كبيراً من العالم، كما أننا لا يمكن أن نتظاهر بأن القمع الشديد لحقوق الإنسان فى مناطق عديدة فى أنحاء العالم ليس من بين اهتماماتنا .

وإنه من الواضح أن النمو الاقتصادي غير المسبوق الذي شهده الجيل السابق قد أدى إلى إرهاب البيئة الطبيعية - في حالات معينة - إلى نقطة تصل إلى نقطة الانهيار. وحتى نقوم بحماية البيئة التي نعيش فيها جميعاً، هل من الضروري أن نقلل كثيراً من مستوى المعيشة في البلدان الصناعية؟ هل سيكون من الممكن المحافظة على النمو الاقتصادي مع تغيير نمط هذا النمو بشكل يقلل من الأضرار التي تلحق بالبيئة وذلك عن طريق تقليل استخدام الوقود المستحاثي كالفحم والنفط من الأرض مثلاً؟

وإننا فيما بيننا لم نتفق على نوع التغيير البيئي الجذري الذي سيتطلبه هذا التقشف في استخدام الموارد البيئية، ولكن لا يمكن لأي نسق أخلاقي ألا يتأثر باحتمالات الأضرار التي تلحق بالأرض التي تقدم لنا الحياة. وإن حماية هذا الكوكب أمر يتطلب تغييراً بعيد المدى، وخصوصاً في البلدان الصناعية.

ويشعر كتاب هذه المقالات الأربعة بالإعجاب بما حققه التقدم العلمي والاقتصادي الحديث وبما قد يحققه في المستقبل. وإن بيرميستر متأثر بالعلم كثيراً، ولكننا جميعاً نوقن بأن الإيمان يجب أن يكون مفتوحاً لاحتوى الحقيقة التجريبية، لا مستمداً من العلم بدون تفكير في إطار دوجما، وإننا نرى أن التنمية الاقتصادية السريعة التي شهدتها الإنسانية في المائتي عام السابقة بالإضافة إلى التنمية المتسارعة في العالم أجمع

التي شهدتها الجيل السابق فد أدت إلى خير يفوق كثيرًا الشرور التي نجمت عنها، ولكن التقدم المادي قد أعطى لقوى الشر أيضا قدرات لم يسبق لها مثيل. وإن جميع التقاليد الأخلاقية الإنسانية تعلمنا أسسًا أخلاقية متشابهة، فيما مثل الأمانة والتواضع والاهتمام بالآخرين. أما المادية والعلمانية فقد أضعفتا إرادة الناس للقيام بما يعتقدون بالفعل أنه صواب.

ويحتاج العالم إلى أناس يتمتعون بدوافع عالية أكثر من أي فترة سابقة، وذلك في ظل خطر نشوب حرب نووية أو انفجار بسبب الظلم وعدم العدالة في هذا العالم المتشابك، أو احتمالات الدمار البيئي، ولكن يبدو أن الحياة المادية تخلق من أي أهداف أكثر قوة من تحقيق الثراء. ويشخص مؤلفو هذا الكتاب الداء الروحي الذي يعاني منه العالم بصور مختلفة، ويقدمون حلولًا مختلفة، فيرى أجاراواالا أن المشكلة الأصلية تتمثل في الأسطورة الحديثة الخاطئة التي تقول إن التطور والتقدم ينشآن عن الصراع، ويوصى بتكامل جديد بين العلم والدين، فالبيولوجيا (علم الأحياء) وما يصفه على أنه "علم الروح" يقوم على المفهوم الذي يقول إن التطور ما هو إلا الكشف التدريجي عن القدرة الإلهية الكامنة في كل شيء.

أما بيكمان فيرى أن أصل المشكلة يتمثل في غياب الطاقة الأخلاقية، ويأمل أن تؤدي المناقشات الموسعة لمشكلات العالم، وكذلك الأنشطة

الفردية وإعادة الحياة للمسيحية إلى تنشيط طاقات إضافية للتعامل مع المهام التي بين أيدينا الآن .

ويؤكد بيرميستر أنه يوجد أيضا إحساس بغياب الهدف حتى في البلاد التي لا ينبغي على أفرادها القلق بخصوص الوفاء باحتياجاتهم الأساسية، ويقترح نموذجا جديدا يمكن أن يعطي معنى للحياة، وهذا النموذج سيركز على مهمة الوفاء بالاحتياجات الأساسية على مستوى العالم، وعلى إعادة بزوغ الفردية، وعلى الأعمال الإبداعية الجديدة .

أما سراج الدين فيرى أنه ربما كان أصل المشكلة يتمثل في عدم كفاية وشمولية المعتقدات المعاصرة وخاصة هذا المعتقد الضيق الذي يعرف "بالقومية"، ويقول إننا يجب أن نبدأ بإصلاح أنفسنا، فيمكن للمسلمين أن يصلح . مجتمعاتهم عن طريق الحفاظ على إرادة الله أن يكون الإنسان خليفة له على الأرض The steward of creation .

وتعتمد هذه التشخيصات المختلفة للمشكلة على خلفياتنا الثقافية والدينية المتنوعة، فلأن بيكمان وسراج الدين يعبدان إله إبراهيم فإنهما يتوقعان أن يجدا قوة روحية في رحمة الله وفي العودة إلى طاعته مجددا، فيؤكد بيكمان، ملتزما بعقيدته المسيحية، القوة المنشطة لرحمة الله، في حين أن سراج الدين، ملتزما بعقيدته الإسلامية، يؤكد العمل الإنساني .

أما أجاراوالا وبيرميستر فيقومان بمسح للتجربة الإنسانية العامة -

لا يفتصر على وحى بعينه - بحثًا عن الاسترشاد الروحي، ويريان
مصير الإنسانية في إطار التطور الإنساني، وهما أقل اهتمامًا من سراج
الدين وبيكمان بمسألة الولاء لتقليد بعينه، ولكن بيرميستر، تعبيرًا عن
جذوره الغربية، يميل إلى الاعتقاد بأن التطور يحدث من خلال طفرات
في الإبداع الإنساني (بوذا أو المسيح أو باخ أو أينشتاين)، في حين ينظر
أجاراوالا، من خلال جذوره الهندوسية، إلى التطور على أنه نتيجة
للتكامل بين حقائق متنوعة وبين شعوب عديدة .

وعلى الرغم من أن رؤيتنا لمشكلات العالم الكبرى رؤية متشابهة،
إلا أن هذه الاختلافات في التحليل الروحي تقودنا إلى التأكيد على أنواع
مختلفة من الإصلاح العالمي. فيؤكد أجاراوالا على وسائل عالمية جديدة
وأسواق جيدة وحركة تشبه حركة غاندى من حيث كونها بسيطة وتدعو
إلى أعمال الخير. ويأمل بيكمان في إحياء أرواح متحمسة لتشجيع المزيد
من الجهود في مجال نزع السلاح والتنمية الاقتصادية. ومثل هذه الجهود
يمكن أن تزداد قوة أو أن تتحسن، ولكن عليها أن تسير أساسًا على
خطوط من الإصلاح الليبرالي الذي شهدته الجيل السابق.

وبيرميستر أكثر جرأة بخصوص ما قد تحققه الجهود الأخلاقية،
وعلى ذلك فإنه يحثنا على العمل من أجل تحقيق تغييرات جذرية تتمثل
في: خفض التسلح بصورة كبيرة، وتقليل عدد السكان، والحد من استهلاك

الموارد. في حين يدعو سراج الدين كل فرد إلى إصلاح نفسه، وبالتالي فإنه يركز اهتمامه على ما يتضمنه مفهوم "الخلافة" للمسلمين وعلى نموذج "المجتمع المتوازن" في البلدان الإسلامية .

ويمكن لهذه السبل المتنوعة للعمل أن يكمل بعضها البعض، وإن كان أجاراوالا وبيرميستر يعتقدان أن إيمان بيكمان بالمسيح وإيمان سراج الدين بالقرآن يمثلان بقايا فترة أكثر بدائية، ولم يعودا صالحين للعالم الحديث، فإن بيكمان وسراج الدين من ناحية أخرى يريان أن إيمان أجاراوالا وبيرميستر بالاتجاهات الأخلاقية للإنسانية غير واقعي ومضلل. ولكن لدينا جميع الأسباب الدينية التي تدعو للأمل. فيؤمن أجاراوالا أن القدرة الإلهية الكامنة في الإنسانية ستفوز في النهاية، أما بيرميستر فيعتقد أن الناس سيقومون بالإصلاح إذا ما تفهموا أن ذلك في مصلحتهم، ولكنه غير متأكد تمامًا من ذلك. ويأمل سراج الدين أن يلهم العقل والوحي الأفراد والأمم بالتصرف الصحيح. أما أمال بيكمان فتتمثل في أن الله سيكون صبورًا مع البشرية، كما كان دائمًا في الماضي .

إن رحلة الحج الخاصة بنا ، في صباح كل جمعة وفي كتابة هذا الكتاب، قد ساعدتنا على مواجهة المهمة المعقدة التي تتمثل في جعل القيم الروحية تنعكس على الأمور الدنيوية، وفي النهاية يمكننا أن نوجه الاهتمام إلى نوع النشاط الذي نتج عنه هذا الكتاب، والذي يتضمن

الاستماع إلى أناس ينتمون إلى أمم وثقافات أخرى، فلقد أصبح الحوار بين شعوب العالم مسألة حياة أو موت، وذلك لأن العالم قد أصبح أصغر وأكثر عرضة للخطر .

إن البنك الدولي في حد ذاته يعد أداة للتفاهم الدولي، ويجتمع مجلس إدارة البنك في صباح أيام الثلاثاء، ويمثل مجلس الإدارة هذا ١٥٤ أمة، وبالتالي فإنه يضم تنوعاً ثقافياً وسياسياً هائلاً ، وتكون هناك مناقشات جادة في هذا الاجتماع في بعض الأحيان، ولكن بدون دعاية صاخبة وبدون حقد أو ضغينة، فمجلس الإدارة يوافق كل عام على منح ٢٠ بليون دولار أمريكي لمشروعات تشجيع النمو وتقليص الفقر في الدول النامية .

إن هذا أمر ممكن، وذلك لأن المناقشات في البنك الدولي تتركز جزئياً على الإجراءات العملية لتشجيع التطور الاقتصادي والاجتماعي، والمديرون لا يعطون خطبا لبعضهم البعض تدور حول هذه القضايا الكبرى مثل خطر الحرب النووية، فنادرًا ما يستخدم مدير ما المجلس لإثارة جدل سياسي بين أمة وأخرى، والاختلافات الدينية والثقافية لا يتم التحدث عنها، ويستطيع المجلس لذلك، بعد أن ينحى الكثير من الموضوعات الخلافية جانباً، أن يصل إلى اتفاق بخصوص رفع دخل صغار الفلاحين أو مساعدة دولة على استخدام موارد الطاقة لديها بصورة أكثر فعالية. ويمكن أن يتفق المديرون في بعض الأحيان على اتخاذ

خطوات تعاونية للتعامل مع موضوعات ملحة وحادة مثل الدين العالمي أو التصحر في البلدان النامية. ويصف أحد أعضاء جماعة الجمعة اجتماع مجلس إدارة البنك على أنه "معجزة صباح الثلاثاء".

إن المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي تعد ظاهرة حديثة نسبيًا وما زالت محدودة، ولكنها ذات قيمة عالية في تاريخ البشرية. أما جماعة الجمعة المنبثقة عن البنك الدولي فتتمثل أمرًا أكثر حداثة، بل إنه في طور الجنين. إنها تمثل الترابط المتزايد الحميم الذي يزداد عمقًا بين شعوب العالم. إن اجتماعاتنا - لكونها صغيرة - تسمح بإنشاء علاقات شخصية ثرية. أما حواراتنا فتدور حول النواحي الاقتصادية والفنية للتنمية والقضايا العالمية والإشكاليات الثقافية والأخلاقية والروحية، فنحن نغوص في قضايا سياسية ودينية يمكنها أن تكون مدعاة للخلاف.

ولكننا وجدنا أن مثل هذه المناقشات يجب ألا تؤدي إلى الخلاف، بل على العكس، لقد قربت هذه المناقشات بيننا وأعطت المزيد من الوضوح والطاقة لمهامنا ذات التفاصيل الدقيقة والمتعلقة بالتنمية العالمية.

المؤلفون في سطور:

رامجوبال أجاراوالا

حصل على الدرجة الجامعية الأولى من الهند، كما حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة مانشستر في إنجلترا، وقام بتأليف كتاب يحمل عنوان *An Economic Model for India* (1970)، كما ساهم بعدة مقالات في المجلات والدوريات المتخصصة. يلعب دورًا كبيرًا في إعداد عدد من تقارير البنك الدولي المهمة عن أفريقيا على مدار العقد الماضي، كان آخرها يحمل عنوان *Sub-Saharan Africa: From Crisis to Sustainable Growth* (1989) كما كان المسئول عن إعادة الهيكلة التنظيمية للقروض لكوريا، كما عمل من قبل في بعثة البنك المقيمة في بنجلاديش.

ديفيد بيكمان

أحد كبار المستشارين في البنك الدولي في مجال المنظمات غير الحكومية، كما أنه كان المسئول عن إدارة الفريق الذي كان له الفضل في توجيه البنك لتوسيع تعامله مع مجموعات *Grassroots* وغيرها من المنظمات غير الحكومية. كما عمل من قبل مُعدًا لخطب مدير البنك، وقبل ذلك كان مسئولاً عن مشروعات الإسكان منخفض التكاليف وتحسين

أحوال المناطق الفقيرة في غرب أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وهو قس لوثرى، وقبل أن يلتحق بالبنك الدولي كان يعمل في برنامج تنمية تدعمه الحركة اللوثرية في بنجلاديش، ومن بين مؤلفاته:

The Overseas List: Opportunities for Living and Working in the Developing Countries (1985).

وتم انتخابه في عام ١٩٩١ رئيساً لحركة "الخبز للعالم" Bread for the World وهي حركة المواطنين المسيحيين لمحاربة الجوع. وسفن بيرميستر

يعمل في وظيفة السكرتير التنفيذي للبنك الدولي، والتي من بين مسؤولياتها التعامل مع مجلس المديرين التنفيذيين الذي يمثل الدول الأعضاء في البنك، كما كان من قبل مسؤولاً عن القروض الموجهة لقطاع التعليم في البلدان التي تقع على شاطئ المحيط الهادى فى قارة آسيا، ومن بينها جمهورية الصين الشعبية. كما عمل أيضاً رئيساً لقسم القرن الأفريقي، ومساعدًا شخصيًا لروبرت ماكنمارا عندما كان يشغل وظيفة رئيس البنك الدولي، ويحمل بيرميستر درجتين جامعتين، إحداهما فى الكيمياء والأخرى فى العلاقات العامة، كما كان أستاذًا مساعدًا فى جامعة جورج تاون خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، وهو يتحدث عشر لغات، كما أنه مشهور فى الدانمارك ككاتب وصحفى ومعلق تلفزيونى، ويحمل أحدث كتبه الذى صدر باللغة الدانماركية عنوان .USA: Land of the Middle Class

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية، ويرأس مجالس إدارة المعاهد السبعة والمتاحف الثلاثة التابعة للمكتبة. وقد نال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٧٢، وشغل بعدها عدة مواقع في البنك الدولي حتى عُيِّن نائبًا لرئيس البنك في عام ١٩٩٣، وظل بهذا المنصب حتى استقال منه عام ٢٠٠٠. وقد حصل على ١٧ دكتوراه فخرية من جميع أنحاء العالم. كما ينتمي إلى عضوية العديد من الأكاديميات والمؤسسات العلمية، ورئيس وعضو اللجان الاستشارية في عديد من المعاهد والهيئات البحثية والعلمية والدولية. وقد قام بتأليف وتحرير أكثر من ٥٠ كتابًا، بالإضافة إلى ٢٠٠ مقالة وبحث تقني في مجالات الاقتصاد والعلوم والثقافة والأدب والعمارة، وله اهتمام خاص بمحاربة الفقر وقضايا المرأة وحقوق الإنسان وعمالة الشباب والبيئة وشئون المياه.

المترجم في سطورة:

محسن يوسف

مستشار المشروعات الخاصة بمكتبة الإسكندرية. كان خبيرًا في اليونسكو والبنك الدولي، وغيرهما من المؤسسات الدولية والإقليمية، في مجالات التعليم وتخطيط تطوير الموارد البشرية. كما عمل أيضًا في مجالات الإعلام والمشروعات متناهية الصغر لمساعدة الفقراء، وخاصة من النساء. كما شارك في عديد من المؤتمرات والندوات حول التنمية المستدامة، ومُحاربة الفقر والجوع. وشارك في العديد من البحوث والدراسات حول تنمية المجتمع المحلي وهجرة العمالة وسوق العمل والإعلام والمعلومات.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى: حسن كامل



تقدم النسخة العربية من هذا الكتاب فرصة طيبة لمعايشة المناقشات الفكرية التي تمت داخل أكبر وأهم مؤسسة للتنمية في العالم، على أمل أن تعبر الأفكار المطروحة في هذا الكتاب عن أهمية القيم في التنمية، وتعيد الثقة في إمكانية تحسين مستقبل الإنسانية من خلال ما طرح في الكتاب من أفكار يجمعها في الأصل نسيج أخلاقي واحد، رغم اختلاف الانتماء إلى التقاليد الدينية والثقافية لأصحاب الآراء المطروحة التي ركزت على معالجة قضايا التنمية وسبل الحفاظ على الحياة بطريقة أفضل على كوكب الأرض، وعلى أمل أن تبشر هذه المحاورات بالرغبة في العمل على تحقيق مرحلة جديدة يحل فيها الحوار مع الآخر محل الصراع والنزاع والصدام.

مدير مكتبة الإسكندرية
إسماعيل سراج الدين

53

8
9

Bibliotheca Alexandrina



0749535